دراسات حول المدينة المنورة
(٨)

ديوان

محمد أمين الزللي

من شعراء المدينة في القرن الثالث عشر

تحقيق وتقديم
الدكتور محمد العيد الخطراوي

مكتبة دار التراث
المدينة المنورة - ص.ب ١٦٤٧


بسم الله الرحمن الرحيم

ديوان

محمّد أمين الزُّلَلي

الطبعة الأولى
١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

مقدّمة التحقيق

الشاعر:

لا بد لنا بين يديْ هذا الديوان من أن نحاول إلقاء بعض الضوء على حياة صاحبه، ولا مناص لنا أيضاً من أن نتناول بالقدر الذي توفره لنا المراجع، بعض جوانب الحياة المحلية للعصر الذي عاش فيه، لأن ذلك قد يساعدنا على فهم الظروف التي كتب فيها شعره، ويضع أمامنا الإطار الذي ينبغي أن نفهمه فيه، فلا نتعسف تقويمه ولا نسيء تقديره، ولا نتوقع منه شيئاً خارج حدود عصره، ولا نحمِّله فوق ما يطيق.

لا نقول هذا انطلاقاً من الإيمان بالحتمية وحدّة سيطرة الظروف، ذلك الإيمان الذي يجعل مُبدِعي كل عصر صورة مكررة لمعطىً واحد، ويقلّل من قدرة الأفراد على المشاركة في التطور والابتكار، ولكننا نقوله لإيماننا بأن الفرد ابن المجتمع، والمجتمع وليد الأفراد، يتبادلان التأثّر والتأثير، ويعملان متآزرين لبلوغ الغاية وتلوين جوانب الحياة.

نسب الشاعر:

هو محمد أمين بن حسين بن أبي بكر بن خضر، الزُّلَلي. قال

الأنصاري[1]: بيت الزُّللي، ويقال له الزَّيْلوي، نسبة إلى زُلَل، مدينة مشهورة بالديار الرومية. ويبدو أن الأمر اشتبه على الأنصاري في اسم هذه المدينة، فهي زَيْلَهْ كما جاء في المراجع الأخرى وكما هي في خريطة تركيا، وليست زُلَل، والنسبة الصحيحة إليها: زَيْلهيّ، ولكنهم خالفوا ذلك فقالوا: زَيْلَهْ وِي، كما جاء ذلك في إيضاح المكنون، وشهيّ النغم وغيرهما[2]، وقد كان هذا شائعاً في النسب إلى البلاد التركية الأخرى المختومة بالهاء، كقولهم: الأَدِرْنَه وِي والأنقَرَه وي في النسب إلى أدِرْنه وأنْقَره. وممّن جاءت نسبته على هذا النحو: الطبيب محمد الحسيني، المعروف بأمير چلب الأدرْنه وي، المتوفى سنة ١٠٤٩ هـ، صاحب (ديوان المعمّيات) المكتوب باللغة التركية[3]. والشاعر التركي الآخر محمد عارف بن الشيخ مصطفى الأنقره وي[4]، المعروف بمدرس زاده، القاضي، والمتوفى سنة ١٢٦٧ هـ.

ثم من عادة الأتراك في النسب إلى الأشياء والصناعات أن يزيدوا جياً في آخر المنسوب، مثل: قهوجي، وجواهرجي، والطُّبْجي، في النسبة إلى القهوة والجواهر والطُّبْ (المدفع بالتركية). ومن عادتهم في النسبة إلى البلاد أن يزيدوا لاماً قبل ياء النسب

---

(١) تحفة المحبين والأصحاب، في معرفة ما للمدنيين من الأنساب ص: ٢٦٤ تأليف عبد الرحمن الأنصاري ـ تحقيق محمد العروسي المطوي ـ تونس ط ١ سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م.

(٢) إيضاح المكنون، لإسماعيل باشا ١: ٤٩١ وشهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم، للألوسي، بتحقيقنا، ص ١٨٨.

(٣) إيضاح المكنون ١: ٥٣١.

(٤) المرجع السابق ص ٥١٥.

أيضاً، فيقولون ـ مثلاً ـ جزائرلي ـ أورفلي ـ أزميرلي، نسبة إلى الجزائر وأورفة وأزمير، وهم لا يبالون في جميع ذلك بما يحذف من الكلمة أو يبقى، ومن هنا تحولت الزَّيْله وي إلى الزيله لي كما أثبتها كحّالة، ولها عندهم نظائر، فمن مشائخ الزُّللي: الشيخ أمين أفندي المُوره لي، نسبة إلى موره[1]. وقد تحذف الهاء أحياناً أيضاً، كالغزنوي نسبة إلى غزنه، فهكذا جاءت النسبة إليها في الكتب العربية، ومن أشهر من ينسب إليها: السلطان محمود الغزنوي المتوفى سنة **٤٢١ هـ**، ولهذا قال الأنصاري: (ويقال له الزيلوي). ويبدو أن تحوّل النسبة فيه إلى زُلَليّ، لا يعدو أن يكون ضرباً من التخفيف والتخلّص من مظاهر العجمة في الكلمة لا غير، ثم ضُمّت الزاي بفعل العامّة أو للتخلص من معنى الزَّلل.

هذا وقد أخطأ الزركْلي وتابعه كحالة، في اسم والد الشاعر، فسمياه حبيباً[2]، والصحيح أنه حسين كما أثبتناه نقلاً عن شهيّ النغم من خلال كلام الزللي نفسه[3]. وحسين هذا كما ذكر الأنصاري هو أول من قَدِم إلى المدينة المنورة من أفراد هذه الأسرة وإليه ينتمي جميع فروعها، وكان قدومه إليها في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الهجري. أرسلته الدولة العليّة ليعمل بها نائباً شرعياً، وكان على قدر من العلم والفضل، موسوماً بالتقوى والصلاح، ولهذا كان ممّن أكرمهم الله بالإمامة والخطابة في المسجد النبوي، وشرّفهم بحمل لقب

---

(١) هو من مشائخ الزللي، على ما سيأتي.

(٢) الأعلام ٦: ٤٢ ومعجم المؤلفين ٩: ٧١ وتابعناهما عليه في هامش شهي النغم ص ١١٦.

(٣) شهي النغم ص ١٨٩.

الخطيب. ونلاحظ أننا نجد كثيراً في تراجم أهل المدينة لهذه الحقبة من حظوا بهذا اللقب واقترن بأسمائهم. كانوا يحظون به إما عن طريق الوراثة من أسلافهم، وإما عن طريق ثقة الدولة العثمانية بهم وتعيينهم في هذا المنصب. ومن الملاحظ أيضاً أن المسجد كان يضم مجموعة من الأئمة والخطباء في آنٍ واحد، مراعاة لتعدّد المذاهب، رغم سيادة المذهب الحنفي، وإما مراعاة للمنازل العلمية للشيوخ. ومن المؤكد أن هذا المنصب لم يكن لمجرد التشريف، بل كان بطبيعة الحال يجر إلى صاحبه بالإضافة إلى المكانة الاجتماعية والدينية، منافع مالية، ويضمن له موارد جيدة، فقد كان للحرمين الشريفين أوقاف كثيرة غنية في معظم الأقطار الإسلامية، وكان السلاطين والوزراء والكبراء والأغنياء يغدقون على أهل مكة والمدينة بعامة، وعلى أصحاب الهيئات بخاصة، لأغراض مختلفة، ولهذا استطاع والد الشاعر أن يجمع ثروة مذكورة، وأن يكون من ذوي الهيئات، قال الأنصاري: (وكان صاحب أخلاق رضيّة، وكمالات مرضية، ما رأينا مثله في المجاورين، كريم النفس، حَسَن الهيئة، وتوفي سنة ١١٩٣ هـ، وله أولاد أمجاد، وكان صاحب ثروة، وبيننا وبينه محبة شديدة، وصحبة أكيدة)(١).

ومن الغريب أن الأنصاري رغم ادّعائه صُحبة حسين أفندي الزُّللي، فإنه لم يذكر أسماء أولاده الأماجد الذين أشار إليهم، مع أنه ذكر ذلك في تراجمه لأُناس آخرين، بل وذكر حتى أسماء بناتهم، ومعنى هذا أننا لا نجد في كتابه ذكراً لاسم صاحبنا، ولا ما يساعدنا على تحديد سنة ميلاده، وكذلك أغفلت المراجع الأخرى هذا

(١) تحفة المحبين ص ٢٦٥.

التحديد، غير أن بعضها أشار إلى أنه رومي الأصل مدني المولد والمنشأ. ونحن إذا عرفنا أن والده حسيناً توفي سنة **١١٩٣** علمنا بالتأكيد أن شاعرنا ولد قبل هذا التاريخ، وإذا استحضرنا في أذهاننا قول الأنصاري: (وله أولاد أمجاد)، ترجح لدينا أنه ولد قبل وفاة والده بفترة معقولة بانت فيها بعض مجادته، وهي في الغالب لا تقل عن سن التمييز، أي أن والده تركه في حدود العاشرة على أقل تقدير، وبذلك قد يكون من مواليد **١١٨٣** هـ، ونحوها، وبهذا يكون عمره حين مات، حوالي **٥٨** سنة، لأنه توفي سنة **١٢٤١** هـ، كما جزم بذلك الزركلي وكحالة.

هذا وأسرة الزُّللي الآن من الأُسر الكريمة البارزة في المدينة المنورة، العريقة بين سكانها، فقد مضى على سكناهم فيها على ما قدمنا أكثر من قرنين من الزمان، وقد كان أحدهم وهو منصور الزُّللي، من أعيان المدينة الذين وقفوا سنة **١٣٢٤** هـ - **١٩٠٦** م ضد طغيان محافظ المدينة العثماني علي باشا مرمحين. وتعسفه في فرض الرسوم على أهل المدينة، وغطرسته وتهوره عليهم، وإهانته المتوالية لهم، حيث رفع هؤلاء الأعيان - وكان عددهم أربعين رجلاً - اعتراضهم وشكواهم إلى الدولة، وأجبروها على تنحيته ورفع الرسوم عن أهالي المدينة المنورة. وفي عهد المحافظ عثمان باشا رأت الدولة العثمانية أن حركة هؤلاء الأعيان قد تطورت وجعلت تأخذ شكل الاسترسال في التمرد والمطالبة برفع مظالم أخرى تثقل كاهل الرعية في المدينة، كما هو الشأن في كل ولايات الخلافة آنذاك وبخاصة أن المحافظ ألبسها لباس الثورة على الخلافة والرغبة في إسقاطها،

(١) معجم المؤلفين ٩: ٧١.

فعمدت الدولة معهم إلى العنف، واتجهت إلى البطش بزعمائهم، فألقت القبض عليهم وسجنتهم، وسامتهم ألواناً من الجلد والتعذيب، ثم حكمت عليهم بالنفي عن المدينة والحبس في سجون الطائف، التي كانت سجونها مشهورة في الدولة العثمانية، ينفَى إليها الخصوم والمناوئون من كل مكان، وإليها نفى السلطانُ عبد الحميد قاتلَ عمه السلطان عبد العزيز وأخاه مراد: مدحت باشا رئيس حزب تركيا الفتاة، الذي كانوا يسمونه (أبا الأحرار)، بعد أن عزله من رئاسة الوزارة وفرق شمل أعوانه، ثم أمر بقتله خنقاً في هذه السجون[1].

وقد صور ما نال هؤلاء المدنيين أحد المشتركين في هذه الحركة الشاعر السيد أنور عشقي فقال في قصيدة له:

نساق للسجن لا جرمٌ نُدان به
إلا تلافيق زور من ذوي فتن
كنا نطالب بالعدل الذي حرمت
منه المدينة: دار العدل والمنن
أي الذنوب اللواتي نستحق بها
هذا العقاب، سوى الأغراض والإحن.؟

ما ضرّنا غيرُ قولِ الشامتين لنا:
ذوقوا جزاءكمُ في السجن والوهن
قضت علينا الدواهي وهي ظالمة
بعداً عن الأهل والإخوان والوطن

(١) تاريخ الدولة العليّة العثمانية ـ محمد فريد بك المحامي ـ تحقيق الدكتور إحسان حقي ص ٧٤٣ ط ١ سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م دار النفائس ـ بيروت.

قاضٍ تهوَّر في أحكامه فقضى
بما يصوِّره الواشون من دَرَن
فكيف يقضي بما تملي غباوتُه.؟
ألا يفرِّقُ بين الخمر واللبن.؟
(ما كان بالْحَكمِ التُرْضَى حكومتُه)
ولا على السرِّ والنجوى بمؤتمن[1]

ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وقضوا في سجنهم هذا ثمانية عشر شهراً كاملة[2].

عصره:

شهدت منطقة الشرق العربي في الحقبة التي عاشها هذا الشاعر على المستوى العربي، حدثاً هاماً كان له الأثر البعيد على حياة أبنائها سياسياً واجتماعياً وثقافياً، ذلك هو الاحتكاك المباشر بالعالم الأوروبي، والتعرّف إلى كثيرٍ مما عنده من الوسائل العلمية الحديثة، وبخاصة في الشؤون العسكريةِ وأدوات الحرب والقتال، وتمثّل ذلك أول ما تمثل في حملة نابليون بونابرت على مصر (١٢١٣ هـ - ١٨٧٩ م)، ثم تتابع في صورة بعثات علمية ومصادمات عسكرية متوالية انتهت آخر الأمر بانتصار منطق القوة وانحلال عُرى الخلافة العثمانية، ووقوع المنطقة العربية جميعها في براثن الاستعمار، في صور مختلفة ونسب متفاوتة. وقد كان لكل ذلك آثاره الواضحة في رسم طبيعة العلاقات بين

---

(١) فصول من تاريخ المدينة - علي حافظ ص ٣٥ - ٣٩ - شركة المدينة للطباعة والنشر - جدة.

(٢) الشعر الحديث في الحجاز . عبد الرحيم أبو بكر ص ٥١.

أجزاء المنطقة وتوجيه نشاطاتها، وتحديد أشكال الأواصر التي تربط بينها.

وإذا كانت مصر والشام لظروف معينة هما أكثر البلاد العربية تأثيراً واستفادة من هذا الاحتكاك، فإن الحجاز والجزيرة العربية بعامة أخذت وضعاً آخر، ولم يظهر تأثرها به إلا في وقت متأخر نسبياً، أو هكذا بدا في حياة الناس على الأقل.

وشهدت المنطقة من جهة أخرى على المستوى المحلي قيام مملكة عربية في الجزيرة العربية بزعامة آل سعود، عاصمتها الدرعية، بعد أن انزوى العرب مئات السنين في زوايا التاريخ واحتوتهم دهاليز العدم والنسيان. قامت هذه المملكة منذ كانت إمارة سنة **١١٣٩ هـ** على عهد الأمير محمد بن سعود إلى أن قويت شوكتها واشتد عودها في مطلع القرن التالي، لتعيد للعرب مكانتهم في المسيرة الإسلامية، وتقيم فيهم الدين على أساسٍ من العقيدة الصحيحة والمنهج الرباني السليم[1]، فسُرَّ بها قوم، واستاء لها أقوام وأقوام آخرون، وكان سيغدو لها شأن كبير في مُجريات الأحداث وتغيير مسار التاريخ لو شاء الله واستقرت لها الأمور وتهيأت لقادتها ظروف البناء والنماء، إذ العرب على مرّ التاريخ هم مادة الإسلام، والعروبة هي وعاؤه وحرزه الأمين. ولكن هذه المملكة الناشئة انشغلت طوال فترة وجودها بردّ المهاجمين من الخارج، وإخماد تحركات الأعراب المنتقضين في الداخل، فكأنها لم تُعْطَ الفرصة للقيام بدورها، وتحقيق أهدافها التي من أجلها قامت. ورغم قسوة هذه الظروف استطاعت بعونٍ من الله أن تسيطر

(١) هو المنهج السني السلفي الذي نادى به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، وتبنّاه آل سعود.

بالفعل على مناطق شاسعة من الجزيرة بما فيها الحجاز، حيث ابتدأت حروبها مع الأتراك سنة ١٢٠٥ هـ، فامتلكت الطائف سنة ١٢١٧ وتمكنت من دخول مكة سنة ١٢١٨، ودخلت جيوشها المدينة بعد ذلك بسنتين، وبذلك دخلت المدينة المنورة في حكم آل سعود، وعقدوا لواء إمارتها للأمير مبارك بن مضيّان الظاهري[١]. ثم واصلت هذه المملكة زحفها في جميع الاتجاهات، حتى وطئت أقدامُ خيلها تخومَ دمشق وحلب وبغداد، ودوّخت كتائبُها جيوشَ الدولة العثمانية وانتصرت عليها في كثيرٍ من الوقعات والمواقع أيما انتصار، وذلك على عهد أميرها البطل عبد العزيز بن محمد بن سعود المتوفى سنة ١٢١٨ هـ وابنه الهمام الأمير سعود الكبير المتوفى سنة ١٢٢٩ مما جعل الدولة العثمانية تأخذ للأمر عدّته، وتجدّ كل الجد في القضاء عليها واقتلاعها من جذورها، ولذلك أصدر[٢] السلطان محمود خان الثاني فرماناً (مرسوماً) إلى محمد علي باشا والي مصر سنة ١٢٢٢ هـ - ١٨٠٧ م يأمره فيه بمحاربة آل سعود واسترجاع الحرمين الشريفين من أيديهم، إذ الخلفاء العثمانيون كانوا يرون في خروج الحرمين من قبضتهم أمراً فادحاً في خلافتهم وإمارتهم للمؤمنين، تلك الإمارة التي كانوا يعتبرونها من حقهم وحدهم منذ دخول السلطان سليم الأول إلى مصر سنة ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م وتنازُلِ محمد المتوكل على الله آخر خليفة عباسي فيها عن حقه في الخلافة الإسلامية له، وتسليمه إياه الآثار النبوية والبيرق والسيف والبردة[٣]، ثم إرسال الشريف بركات

---

(١) المدينة المنورة عبر التاريخ للبرادعي ص ١٣٠.

(٢) تاريخ الدولة العليّة العثمانية - محمد فريد بك المحامي، ص ٤٠٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٩٤.

أمير مكة ابنَه أبا نمي بمفاتيح الحرمين الشريفين إليه[1]، ولذلك نراهم بعدها يتلقبون بلقب أمير المؤمنين.

ومن جهة أخرى اعتقد العثمانيون أن ظهور مملكة عربية في أرض الحرمين خطر يهدد وجودهم في البلاد العربية كلها، ويعطل مصالحهم في هذه المناطق الوفيرة الخيرات، ويهيء تلك المملكة لقيادة العالم الإسلامي، وبخاصة أن زعماء هذه الممكلة إنما قاموا على أساس إسلامي، ودعوا إلى الإسلام، وحاربوا من أجل الإسلام، ولذلك نراهم يحاربونها أيضاً باسم الإسلام، بغض النظر عن مفهومهم الخاطىء له فيما علق به لديهم حينئذ من تُرهات وأضاليل، وما اختلط به من المظاهر الشركية التي يتبرأ منها الإسلام، ويستصدرون الفتوى من المفتي العام للدولة العثمانية بكفر زعمائها ووجوب قتالهم[2] ليجتذبوا الناس في كل الأصقاع الإسلامية إليهم ويشوهوا في نفوسهم صورة السعوديين.

وقد أعجبني في هذا الصدد رأيٌ للكاتب السياسي بجريدة المدينة الأستاذ ذبيان الشمري، قرأته بعد أن فرغت من تسويد هذه الفقرة، وقد يكون من المناسب إيراده هنا، وذلك لتواؤمه مع مفهومي لتاريخ هذه الفترة، قال الشمري[3]: «قد لا يعلم البعض أن أول انتفاضة عربية الشكل إسلامية المضمون، حدثت في الجزيرة العربية وفي عام ١١٥٨ هـ ـ ١٧٤٥ م، وذلك عندما تعاهد محمد بن سعود ومحمد بن عبد الوهاب على إقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف

(١) فصول من تاريخ المدينة ص ٣٠.

(٢) عجائب الآثار ٧: ٢٢٢.

(٣) جريدة المدينة (السعودية)، العدد ٦٠٦٠ ـ الأحد ٢٤ محرم ١٤٠٤ هـ.

والنهي عن المنكر». ثم يقول: «وقد خلف الإمام عبد العزيز ابنُه سعود، وذلك في عام ١٢١٨ هـ، حيث استرجع في الأسبوع الأول من تلك السنة مكة المكرمة، وبذلك تمَّ له تحرير الحجاز من السيطرة التركية، وترسيخ النظام الإسلامي في ربوع أول مملكة إسلامية عربية في تاريخنا الحديث، وبعد استرجاع مكة أرسل الإمام سعود بن عبد العزيز إلى السلطان العثماني سليم خان الثالث بالرسالة التالية:

من سعود بن عبد العزيز إلى سليم:

أما بعد: فقد دخلتُ مكة لليوم الرابع من محرم سنة ١٢١٨ هـ وأمنتُ أهلها على أرواحهم وأموالهم، وألغيت الضرائب المفروضة عليهم.

وقد وقّع الرسالة الآنفة الذكر بـ(الواثق بالله المعبود: سعود). انتهى كلام الشمري.

وكان تصحيح العقائد ومحاربة البدع ورفع المظالم عن الناس من أهم أهداف المدّ السعودي، يقول الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٦ هـ: إن الشريف غالب أمير مكة كان (ينافق للطرفين الذي هو العثماني والوهابي ويداهنهما، أما الوهابي فلخوفه منه وعدم قدرته عليه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التي عاهده عليها من ترك الظلم واجتناب البدع ونحو ذلك ويميل باطناً للعثمانيين، لكونه على طريقتهم ومذاهبهم، وتعاقد مع الباشا -يعني محمد علي- أنه متى وصلت عساكره قام بنصرتهم، وساعدهم بكليته وجميع همته)[1].

---

(١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار - عبد الرحمن الجبرتي - ٧: ١٤٣ تحقيق حسن محمد جوهر وزميليه ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م ط ١ طبع لجنة البيان العربي.

وأكثَرَ الجبرتيّ في كتابه من الموازنة بين ما كان عليه أفراد جيش آل سعود من استقامة والتزام بالحدود الشرعية، وبين ما كان عليه نظراؤهم في الجيش المهاجم من استهتار ومجاهرة بالفسق وارتكابٍ للبدع.

وفي سنة **١٢٢٨** هـ سقطت المدينة المنورة في يد الجيوش الغازية بقيادة طوسون باشا بمعاونة شيخ الحويطات وبعض الأعراب من قبيلة حرب، وبتدبير من الشريف غالب، واستمالة أميرها ابن مضيان ـ وكان من حرب أيضاً ـ فقد استمالوه وأغروه بالمال فسلم لهم المدينة طائعاً مختاراً[١].

واستمرت الحروب بين آل سعود وجيوش محمد علي سِجالاً، وشاء الله أن تكون الغَلَبة آخر الأمر للعثمانيين على يد إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا وقائده على الجيوش الحجازية، وانتهت بأسر الأمير عبد الله بن سعود الكبير، وتخريب عاصمة ملكه سنة **١٢٣٢** هـ ـ **١٨١٧** م، لتمرّ البلاد بعد ذلك بسنوات عجاف من الشر والباطل، وتكمُن فيها شعلة الإيمان والحق إلى أجلٍ موعود، يعزّ الله فيه كلمته وينصر دينه وعباده المؤمنين، ويحقق فيه آل سعود في القرن الرابع الهجري ما لم يتمكنوا من تحقيقه في القرن الثالث عشر من رعاية للحق وإقامة لشريعة الله، وقيادة واعية حصيفة تشمل بخيرها وبركتها كل المسلمين.

ويعالج الشمري هذه النقطة فيقول: «توالت الحروب السعودية التحريرية وقد أشرفت جحافلها على أبواب بغداد، وهددت دمشق وحلب، وأصبحت تهدد كافة الأقطار الآسيوية العثمانية بالسقوط،

---

(١) المرجع السابق ص ١٧١.

وبات قيام دولة عربية إسلامية تضم جميع الأقطار العربية الآسيوية الخاضعة للسيطرة التركية العثمانية هدفاً يسير المنال، قريب المجال، الأمر الذي اضطر السلطان العثماني للاستنجاد بمحمد علي لصدّ الزحف الإسلامي العربي السعودي، وقد استجاب ذلك الألباني محمد علي، انسياقاً وراء أحلامه ومطامعه الشخصية، لنداء السلطان، فشنّ الحرب على أول انتفاضة إسلامية عربية تحررية في تاريخنا الحديث. وقد استمرت تلك الحرب أعواماً سبعة، إذ أنها بدأت في عام ١٨١١م وانتهت بسقوط مدينة الدرعية في عام ١٨١٨ على يدي إبراهيم باشا».

ثم قال: «لا شك أن محمد علي وولده إبراهيم بضربهما للحركة الإسلامية العربية التحررية السعودية قد عطّلا موكب العروبة والإسلام عن السير في معارج التطور مدة من الزمن تكاد تبلغ القرنين، وذلك لأن ما نعانيه اليوم من انقسام وتمزّق، فإنه قد بدأ من حيث الواقع والفعل في عام ١٨١١، أي قبل مائة واثنتين وسبعين سنة، وذلك يوم اصطدمت القومية العربية الشكل المادية المحتوى: قومية محمد علي وابنه إبراهيم باشا، بالقومية العربية الشكل الإسلامية المضمون والهدف، والتي عبّر عنها أحد المجاهدين من (الإخوان) السعوديين بقوله: لقد اقترب الوقت الذي سنرى فيه عربياً على عرش الخلافة».

ولكن محمد علي وابنه إبراهيم باشا لم يكونا جادين في الدعوة إلى العروبة، بل كانا يتخذان منها ستاراً لتحقيق مآربهما، يقول الشمري عن محمد علي: «كان عربياً بحكم الظروف وليس بحكم الطبيعة، فلقد وجد في العرب وفي العروبة مادة لإنشاء امبراطورية

عربية المظهر علوية المضمون، وشعاراً يستهوي العربي ويستظِل بظلاله، ولكن عندما خابت أحلامه في إنشاء تلك الامبراطورية وسجنته الدول الكبرى داخل حدود مصر، عندئذٍ تحوّل وذريته من بعده عن العروبة تحولاً كلياً، ولم يَسْعَ أبداً إلى إقامة نظام إسلامي في مصر، وهكذا تناسى العرب والعروبة، وأقام نظامه على أُسس علمانية محضة».

هذا هو أهم حدث داخل الجزيرة، أما على المستوى العثماني فقد كانت الدولة تئن تحت ضربات الفتن الداخلية والحروب الخارجية، وتعاني من أمراض مزمنة أرهقتها وأثخنتها بالجراح وزرعت في كيانها بذور التخلّف والجهل وكل عوامل الفرقة والانقسام، بينما كانت الدول الأوروبية من حولها تتقدم وتتطور في جميع المجالات، وتبني حياتها على أساس علمي ومنهج حيوي مدروس، وتجتمع للإطاحة بالهيكل العثماني المتداعي واقتسام تركة الرجل المريض كما كانوا يسمونها.

وفي الحقيقة رغم أن الظروف وضعت هذه الدولة موضع الممثلة للوحدة الإسلامية، المدافعة عن حياض المسلمين، المحافظة على هيبتهم، فإنها لم تكن مؤهلة في واقعها لتحمل هذا العبء والقيام بهذه المهمة، وذلك لأسباب كثيرة معروفة مذكورة في كتب التاريخ، لعلّ من أهمها في نظري أنها لم تقم على أساس ديني مكين، وإنما هو حب الحكومة والمُلْك، وشهوة الفتوحات وحب التسلّط، وقد حقق أصحابها ما كانوا يصْبُون إليه من ذلك كله حينما كانوا أقوياء بحكم طبيعتهم الأولى، واعتقد المسلمون في كل مكان أن في انتصارهم انتصاراً للإسلام وامتداداً لمساحته، فلما بردت فيهم تِلْكُم الطبيعة

ظهروا على حقيقتهم، واتضح أنهم كانوا في كثيرٍ من أحوالهم غزاة فاتحين وطلاب سلطة. صحيح أن بعض الخلفاء العثمانيين كان على قسط وافر من الحماسة للإسلام والمسلمين، ولكن عجمته وقفت حاجزاً بينه وبين الاتصال المباشر بمصادر التشريع وينابيع الإسلام، فكان تأثيره محدوداً، وتشتت طاقاته هنا وهناك، ولكن كان على العثمانيين أن يوحدوا لغة الأمة في اللغة العربية، لغة الإسلام، وأن يلغوا الفوارق بينهم وبين العناصر الإسلامية الأخرى التي ملكوها وغلبوها على أراضيها. فإن الأمة الإسلامية فيما نحسب ـ عبارة عن تجمع بشري له عقيدة هي الإسلام، وله لغة هي العربية، تذوب فيه كل الفوارق العرقية واللونية، وتتحقق فيه العدالة، ويسود بين أرجائه الحق وتحكمه المساواة. فهل فعل العثمانيون ذلك أو شيئاً منه؟.

لقد عاشت البلاد العربية بالذات في ظل الحكم العثماني ليلاً طويلاً ثقيلاً من الجهل والتأخر امتد في بعضها ومنها بلاد الحجاز التي منها المدينة بلد الشاعر أربعة قرون حبلى بالشر والإهمال والفساد، مليئة بالنهب والقتل والإرهاب. نقول هذا ونحن مؤمنون بمبدأ الخلافة الإسلامية، متطلعون ليوم الوحدة الإسلامية، غير متأثرين بما كتبه الغربيون حول العثمانيين، وما طعنوا به عليهم رغبة في النيل من الإسلام في شخصهم. بل إن ما ذكرناه وقع بالفعل منهم بمختلف الدوافع، وقد يجحف الأخ بأخيه ولا ينصفه من نفسه، فلا تقف الأخوّة مانعاً من إحقاق الحق وذكر ما له وما عليه.

وإذا وجدنا العثمانيين قد أغدقوا على مكة والمدينة الأُعطيات والصدقات في بعض العهود، فإن ذلك ينبغي أن لا يُنسينا أن هذا الوضع علّم أهل البلدين الكسل، وأورثهم الخور والضعف، وأمات

فيهم الطموح والتطلّع، وأفقدهم الإحساس بالذات، يقول الأستاذ محمد حسن فقي في هذا الصدد: «أما الحجاز فكان عندهم ـ أي الأتراك ـ قطراً مقدساً، يجب أن يعيش في أنماط حياته وطرائق تفكيره وأساليب معائشه كما عاش المسلمون في القرن الهجري الأول[1]، ويجب أن يفرغ أهله للدعاء للخاقانات العظام من آل عثمان بدوام النصر والتأييد. ومن أجل تمكين هذه النظرية السقيمة، أغدقوا ـ أي الأتراك العثمانيون ـ على الحجازيين من المبرّات والصدقات ما أغناهم عن السعي في طلب الرزق من طرقه المشروعة من جهة، وما جعلهم من جهة ثانية أسارى إحسان الدولة العليّة. . . ومن أجل ذلك نشأ الحجازيون كسالى قاعدين عن طلب الرزق والتماس أسباب المجد والتطلّع إلى حياة كريمة مستقلة»[2].

أما جدّة فقد كانت بعيدة عن هذه الأُعطيات، ولكنها كانت تستفيد منها بشكل آخر، حيث إنها كانت المنفذ الأول للصادرات والواردات لكل صاحب تجارة أو مال في البلدين المقدسين.

ويقول الجبرتي قبله في هذا الصدد في أثناء حديثه عن حوادث ذي الحجة من سنة **١٢٢٣** هـ «ولما امتنعت قوافل الحج المصري والشامي[3]، وانقطع عن أهل المدينة ومكة ما كان يصل إليهم من الصدقات والعلائف والصّرر التي كانوا يتعيشون منها، خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم، ولم يمكث إلاّ الذي ليس له إيراد من ذلك[4]،

---

(١) يعني من حيث الوسائل المعيشية بالذات.

(٢) مجلة المنهل ـ عدد ذي القعدة وذي الحجة سنة **١٣٦٨** هـ ص ٤٩١.

(٣) يعني والتركي، لأن الأتراك كانوا يأتون صحبة أحد المحمّلين في الغالب.

(٤) من المعروف أن أصحاب العلاقة بمثل هذه الموارد في كل عصر لا يمثلون الكثرة من السكان.

وأتـوا إلى مصـر والشـام، ومنهم مـن ذهب إلى إسـلامبـول يتشكون من الوهابي، ويستغيثون بالدولة في خلاص الحرمين، لتعود لهم الحالة التي كانوا عليها من إجراء الأرزاق، واتصال الصلات والنيابات والخدمة في الوظائف التي بأسماء رجال الدولة، كالفراشة والكناسة ونحو ذلك»[1].

وهذا يعني أن أهل الحرمين كانوا يعيشون من حيث الظاهر في خفض ودعَة، ولكنهم كانوا في الداخل يعيشون فقراً نفسياً واتكالية ماحقة وكسلاً مميتاً، أي أنهم يعيشون بوجوه مستعارة، ومظاهر للخير قائمة على أساسٍ متداعٍ وأصل منهار. ولكن تلك الحالة على كل حال كانت تدعو بعض القوم لأن يتمسكوا بها ويحرصـوا عليها، وتدفع بعضهم إلى حد الإخلاص والولاء وكراهية التغيير.

أما البادية فيما بين المدن الثلاث، فقد كانوا يعيشون في فقر مُدْقع وإهمال مُتَناهٍ، الأمر الذي اضطروا معه إلى الخروج عن النظام وقطع الطريق وفرض الإتاوات على العابرين من الأهالي والحجاج، فلا يسلم من أذاهم وشرورهم إلا من كـان حليفاً، أو دفـع ما يفرضونه عليه، وحين تقوم الحروب ينضمون لمن يدفع أكثر، وهذا معناه أنهم عادوا في حياتهم إلى وضع أشد مما كان عليه الحال في الجاهلية، ولا شك أن المسؤول الأول عمّا آلوا إليه هو شريف مكة، الذي ارتضى لنفسه أن يكون أُلعوبة في يد الأتراك، وأن يكتفي من الحكم بالصورة والمظهر، إذ وضعت الدولة العثمانية بجانبه والياً تركياً بيده كل المقاليد الفعلية للبلاد، يقول حسين نصيف: (كانت الدولة العثمانية تجعـل بجانب شـريف مكة واليـاً من قِبَلها من الـرجال

(١) عجائب الآثار ٧: ٤٧.

العسكريين والإداريين، وكان إليه الجيش النظامي والمحاكم وإدارة الأموال، وعلى العموم كل مصالح الحكومة النظامية، وكان العمل الرسمي للشريف يكاد ينحصر في شؤون البدو وما إليهم، ولكن بعض أمراء مكة من الأشراف كان يتدخل في كل شيء، ويستبد بشؤون الحكومة النظامية أو بعضها، حسب قوة الوالي التركي وضعفه، وحسب كثرة العنصر الحجازي من موظفي الحكومة، الموالي للشريف.

ولقد نشأ من تغالب هاتين السلطتين متاعب كثيرة للدولة والأهالي، وضاع بسببه أموال كثيرة وحقوق، فإنه لا يمكن أن تصلح بلد فيها سلطتان عاليتان، تسير كلٌّ منهما إلى اتجاه، وتحاول كلٌّ منهما التغلّب على الأخرى)[1].

وكانت جدة ـ فيما يقول عبد القدوس الأنصاري[2] ـ يحكمها قائم مقام يتمتع بكثير من السلطة الشخصية، ويتبع في شؤونه الكبيرة إمارة مكة، ولكن الشوكاني يذكر أنه كان يحكمها فيما بعد سنة ١٢١٠ هـ يوسف باشا تابعة لإمارته على المدينة، وقد كان هذا الباشا قبل إمارته هذه، يتولى منصب الوزارة العظمى في إسلامبول[3].

أما المدينة فإن المسؤول عنها محافظ تركي تعينه الدولة، ويتبعه قائد عسكري يأتمر بأمره في دفع أي اعتداء خارجي على البلد، كما تتبعه قيادة الشرطة، للحفاظ على الأمن في الداخل، يضاف إلى ذلك

---

(١) ماضي الحجاز وحاضره ـ حسين نصيف ـ ص ٨ ـ الطبعة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ.
(٢) تاريخ جدة ـ عبد القدوس الأنصاري ص ٣٨٧ ـ دار الأصفهاني ـ جدة.
(٣) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ القاضي محمد بن علي الشوكاني ١ : ٣٥٧ دار المعرفة ـ بيروت.

كله شيخ الحرم، والقاضي الشرعي، وقد تضم في بعض الظروف مشيخة الحرم إلى المحافظ، فيجمع بين الوظيفتين، ويمنحه ذلك بالطبع قوة زائدة ويعزّز مركزه في الحكم. وكل هؤلاء المذكورين يجب أن يكونوا عادة من الأتراك، ومدة ولايتهم غير محددة، إلا القاضي فإن الدولة العثمانية دَرَجَت على ألّا يزيد القضاة في مناصبهم أكثر من سنتين، وذلك في كافة أراضيها.

وقد كان يحكم المدينة في بداية العهد التركي أمراء من الأشراف يدينون بالولاء لجهة من الجهات، هي في الغالب إمارة مكة الشريفة، ولكن العثمانيين بعد انتصارهم على آل سعود واسترجاعهم المدينة منهم، رأوا أن يستغنوا عن حكم الأمراء الأشراف، وأن يحكموها مباشرة بمحافظين أتراك يعينون من الباب العالي، ويكونون عادة حاصلين على لقب الباشوية. وقد كان من أوائل هؤلاء الباشوات المحافظين، داود باشا الكرّجي الذي ضم إلى جانب وظيفة المحافظ مشيخة الحرم، وذلك سنة ١٢٦٠ هـ، على عهد السلطان عبد المجيد[1] وبقي على ذلك حتى وافته المنية سنة ١٢٦٧ هـ.

حياتـــــه:

عاش الزُّللي في ظل الأحداث التي قدّمنا حياةً امتدت إلى ما يناهز ثمانية وخمسين عاماً، عامرة بالأدب والعلم والترحال، أهّلته للتأليف والتدريس وقول الشعر، ثم إمامة المسجد النبوي والخطابة فيه، وبذلك حافظ على لقب الخطيب الذي ورثه عن والده، ومارسه وظيفةً وعملاً، ومات وهو أحد الخطباء المعدودين.

---

(١) حلية البشر ١: ٦٠٥.

وإذا كانت المراجع اكتفت بالإشارة إلى أن مولده ونشأته ووفاته كانت بالمدينة، وبخلت علينا بسوى ذلك، فإننا نستطيع أن نترسم مسار حياته من خلال بعض الملابسات العامة والخاصة، وبعض الأخبار القليلة المتناثرة، فلا بدّ أن يكون بدأ حياته بالذهاب إلى أحد الكتاتيب التي كانت بلا ريب منتشرة في المدينة، شأنها في ذلك شأن بقية البلاد الإسلامية في ذلك الحين، بل إن الكتاتيب انتشرت في العالم الإسلامي قبل ذلك بقرون عديدة ولم تَخْلُ كتب الجاحظ من الحديث ـ كما نعلم ـ عن معلمي الصبيان، وكان الحجاج بن يوسف في أول حياته معلّم صبيان، ولقد أدركنا المدينة في منتصف القرن الماضي تعجّ بأمثال تلك الكتاتيب المباركة، تابعة للمسجد النبوي أو منفصلة عنه، وهي تهتم عادة بتعليم تلامذتها القرآن الكريم، ثم تُقدّم لهم بعد أن يشتد عودهم في حفظه، بعضَ مبادىء العلوم الشرعية والعربية.

ولا ريب أيضاً أن منبته في بيئة علمية قد هيأ له الاتصال المبكر بالعلم، فقد كان والده حسين كما ذكرنا آنفاً من أهل العلم والفضل، ومن الذين تقلدوا العديد من المناصب الشرعية، التي كان أهمها إمامة المسجد النبوي والخطابة فيه، فلا يستبعد أن يكون هذا الأب العالم قد تولى تدريس ولده وتعليمه في المراحل الأولى، ثم جلس بعد ذلك في حلقات الأشياخ بالمسجد النبوي، حيث كان الحرمان الشريفان على مرّ التاريخ موئلاً للعلم والعلماء، ومصدر إشعاع لعلوم الشريعة والعربية، وظلّا كذلك حتى في تلك العصور المظلمة التي هيمنت فيها اللغة التركية على الألسنة والأقلام، في الدواوين والحياة العامة، وذلك لأسباب ليس هنا محل بسطها، لعلّ

من أهمها ما كان يتمتع به هذان الحرمان من مكانة دينية خاصة في نفوس المسلمين جميعاً، تمنحهما حرية في الحركة والنشاط العلمي، وتجتذب إليهما العلماء من كل مكان بقصد المجاورة أو الحج والعمرة، ولعلهما في هذه الناحية لم يكونا يقلّان أهمية عن جامع الأزهر بمصر وجامع الزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب الأقصى، والفرق الوحيد بينهما وبين هذه المراكز العلمية في ذلك العصر، هو أن الدراسة في تلك المراكز خضعت لشيء من التنظيم والعمل الجماعي الذي يكمل بعضه بعضاً، بينما بقيت الدراسة فيهما معتمدة على الطابع الفردي القائم على منح الإجازة من الأشياخ في كل علم على انفراد.

ومن بين علماء القرن الثالث عشر بالمدينة: داود باشا محافظ المدينة السابق، والشيخ أحمد بن بابا الشنقيطي المتوفى سنة ١٢٦٠ هـ، والمحدّث الكبير الشيخ صالح بن محمد الفلّاني المتوفى سنة ١٢١٨ هـ، والشيخ محمد بن محمد المغربي، المتوفى بها سنة ١٢٠١ هـ، والخطيب الشاعر أحمد البساطي، والشيخ أحمد باعلوي جمل الليل المتوفى سنة ١٢١٦ هـ، وكان أحد المدرّسين البارعين، وكذلك الشيخ زين العابدين بن جمل الليل المتوفى سنة ١٢٣٥هـ، والشيخ أحمد بن عبد القادر بن بكري العجيلي الذي كان يلقب بعالم الحجاز، والمتوفى في سنة ١٢٠١ هـ، وشيخ الإسلام عارف حكمة الذي تولى قضاء المدينة، لمدة سنتين واجتمع من حوله العلماء والطلاب، وغيرهم كثيرون.

وقد بلغ من حماسة داود باشا للعلم وأهله في المدينة أن شرع سنة ١٢٦٧ هـ في الإعداد لافتتاح مدرسة نظامية رسمية على حساب الدولة العثمانية (للإفادة والاستفادة في سائر العلوم والفنون، ولكن

اخترمته المنية قبل تمكنه من ذلك»[1].

وقد كان لظهور الدعوة السلفية في نجد ثم وصولها إلى الحجاز ومنه المدينة، عن طريق دخول آل سعود إليها في مطلع القرن الثالث عشر: الأثر الكبير في تنشيط الحركة العلمية والأدبية سلباً وإيجاباً، حيث أثارت حولها حواراً مستمراً ومناظرات لا يخمد لها أوار، فبينما رفضها بعضهم ووقف منها موقف الحذر أو العداء، رحب بها آخرون واعتنقوها والتفوا من حولها، وألّفت من أجل ذلك الرسائل والكتب، واتجه طلبة العلم إلى القرآن والسنّة يستنطقونهما ويبحثون فيهما عن الأدلة الظاهرة والخفية في أمور العقيدة والأحكام الشرعية.

ولم يكن في الحقيقة تأثير هذه الدعوة قاصراً على نجد وحدها باعتبارها الموطن الأم الذي نبعت منه، ولا محصوراً في البلاد التي شملها نفوذ آل سعود في الجزيرة العربية لكونهم حملة راية هذه الدعوة، بل وصل تأثيرها إلى كل البلاد التي قرعت أسماعها أصداء تلك الدعوة، ومنها الآستانة عاصمة الخلافة، يقول الدكتور عبد الله الشبل في هذا المعنى: (أحدث انتشار مبادىء الدعوة دوياً هائلاً في الجزيرة العربية وخارجها، وانقسم الناس تجاهها إلى فريقين: أنصار وخصوم، فأنصارها يشرحون حقيقتها ويوضحون مبادئها ويدافعون عنها بالحجة والدليل، ويكشفون شبهات خصومهم، وخصومها يحاولون تحطيمها ودحض حجج دُعاتها، فاقتضى ذلك عقد مجالس للجدل والمناظرة والمناقشة، وجدّ كلا الفريقين في البحث والتحصيل، ونشطت حركة التأليف، وقد نتج عن ذلك قيام يقظة فكرية ونشاط

(١) حلية البشر ١: ٦٠٥.

علمي كان المسلمون في أشدّ الحاجة إليهما)[1].

وكان الجبرتي في مصر ممّن تعاطفوا مع هـذه الدعـوة بعض التعاطف، ولذلك نجده يقول في حوادث سنة **١٢٢٣** هـ: «وفي ذي الحجة منها حدث أن انقطع الحج الشامي والمصري عن الحج متعللين بمنع الوهابي الناس عن الحج، والحال ليس كذلك، فإنه لم يمنع أحداً يأتي إلى الحج على الطريقة المشروعة، وإنما يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع، مثل المحْمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة. وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة، وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله، ولم يتعرض لهم أحد بشيء»[2].

والذي لا شك فيه أن بلاد الحجاز ومنه المدينة كانت تزخر بالكثير من الشعراء والأدباء المعدودين، وينعم أهلها بمستوى جيد في علوم الشريعة المختلفة ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ولكن أكثرهم كان في غيبة عن العقيدة السليمة، تسيطر عليه البدع والخرافات ويستولي عليه التصوف، ويضيق عليه التقليد المذهبي آفاق عقله وتفكيره. تعاطف بعضهم مع هذه الدعوة أو وقف منها موقف الحياد، ولكن البعض الآخر ضاق بها وعاداها، إما لكونها تضيّع عليه بعض مصالحه كسدانة قبر أو تأخير عوائد، وإما لكونها تصطدم بما درج عليه من معتقدات موروثة لم يعط لنفسه حق تقويمها أو معاودة النظر فيها. وممّن خرج من المدينة لمثل هذه الأسباب وغيرها الشيخ الشاعر

---

(١) الأخبار النجدية للفاخري ـ مقدمة المحقق د/ عبد الله الشبل ص **٢٧** ـ طبع جامعة الإمام بالرياض ـ رقم (١٠).

(٢) عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ للجبرتي ٧: ٤٧.

إسماعيل بن زين العابدين بن محمد البرزنجي المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ، وذلك سنة ١٢٢٣ هـ حيث عاش خمساً وأربعين سنة مغترباً في بلاد الأكراد بالعراق، ولم يرجع إلى وطنه إلا سنة ١٢٧١ هـ، بعد أن مرّ بدار السلطنة وامتدح السلطان عبد الحميد بقصيدة سينية عيّنه على أثرها في منصب إفتاء الشافعية بالمدينة المنورة، وقد أرّخ عودته هذه الشاعرُ المدني عبد الجليل أفندي بَرّادة بقصيدة مطلعها:

الدهر أقبل بالمسرّة يسعد
ولنا بإنجاح المطالب ينجد

وآخرها:

ولطيبة قد عدت قلت مؤرخاً
في بيت شعر بالمحاسن يفرد:
قد عاد جاراً للرسول محمد
نجلٌ نما، والعَوْد منه أحمد[1]

وكذلك فعل الشيخ الشاعر أبو عبد الرحمن زين العابدين بن جمل الليل بن با علوي المتوفى سنة ١٢٣٥ هـ، وكان من رواة الحديث المشهود لهم بالحفظ وحسن الرواية، فرّ إلى بغداد، وعاش هناك حياة علمية حافلة وروى عنه أجلّة من علمائها ثم رجع بعد انحسار المد السعودي إلى المدينة وبها مات ودفن بالبقيع[2].

وكان شاعرنا الزللي في أثناء حرب إبراهيم باشا لآل سعود مقيماً بمصر حتى عام ١٢٣٨ هـ،- يدل على ذلك تاريخ قصيدته اللامية التي

(١) حلية البشر ١ : ٤٥٢.
(٢) المرجع السابق ٢ : ٦٣٩.

امتدح فيها الوزير إبراهيم باشا وطلب منه فيها المعونة والرفد ليعود إلى أهله في المدينة بعد غربته الطويلة وافر الحال. ومطلعها:

معاليك جلّتْ أن يكون لها مثْلُ
وما هي إلا الآيُ، كلٌّ لها يتلو

ومنها:

وكيف مطاري والتغرّب حَصَّ من
جناحي، وباقي الريش بالعجز مبتلّ؟
أعود لأهلي بعد طول تغرّبي
ولا كسوةٌ تهدَى إليهم ولا نقْل
أُقابل أحبابي بوجهي وكلّهمْ
يناظر ما أهديه لو أنه البقْل
أُواجه أقراني بأثوابيَ التي
خرجتُ بها عنهم، وأخلَقها الغَسْل
وفي العيد لا لابني ولا ليَ كسوةٌ
أتت، وتقضّى العيدُ وانقطع الحَبْل[1]

ومع ذلك لا نستطيع أن نجزم على وجه التأكيد بسبب خروجه من المدينة وإقامته في مصر، رغم ما نجده من هواه التركي الواضح في مدائحه لإبراهيم باشا والإشادة بشجاعته وبسالته وبلائه في الحروب.

شيوخه:

لم تحدّثنا المراجع عن أساتذة الزللي وشيوخه ولكننا نجده يشير

---

(١) انظر القصيدة رقم (٤٣) من الديوان.

إلى بعضهم بكلمة (شيخنا) في كتابه (الطبقات)، الذي لا يزال مخطوطاً، ومنهم[1]:

* أبو الفتح عثمان الحنفي المصري مولداً، المدني هجرة، الشامي شهرة، قال عنه: كان رحمه الله عالماً عاملاً فاضلاً، للمشكلات فاصلاً، حلو العبارة طَلق اللسان مبارك التدريس، لا يدرّس إلا إملاء - كما هي عادة المدرّسين - له متن في الفقه سمّاه: (منهج تحرير المطلوب)، وشرحه بشرح سمّاه (قوت القلوب)، وهو في سفر ضخم. وله (الرسالة المدنية) في الفقه، وشرح على الفقه الأكبر، وشرح السنوسية، وشرح بدء الأمالي، ورسالة في أحكام الاعتكاف وصدقة الفطر والعيد، سمّاها (إتحاف المريد)، ورسالة في فضل رمضان، ورسالة في فضائل ليلة النصف من شعبان، ومنسك مختصر وشرحه، وشرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث، ورسالة سمّاها (الفوائد المهمة في مولد خير الأمة)، وشرح على الأشباه، لم يتم. وأخبرني أن له حاشية على الحلبي الصغير، وأظنها لم تخرج من المسوّدة. حج قبل أن يهاجر من مصر إلى المدينة مرات ماشياً، وكان له جَلَد على العبادة والإقراء، مع ما فيه من ضعف الجسم، وكان لا يترك الحج في كل سنة، وقد أوقف رحمه الله تعالى جميع كتبه وبنى لها موضعاً للحفظ بالقرب من داره التي بالعريضية[2]، وكان بناؤه لها بالدَّين رحمه الله تعالى، وتوفي ضحى

---

(١) الورقة ٧٦ - ٧٧.

(٢) العريضية: محلة بالمدينة مكتظة بالمنازل والسكان، واقعة شمال شرق مسجد الصدّيق، وقد زالت معالمها الآن بسبب حركة التطوير والتحديث.

يوم السبت ثاني شعبان سنة ١٢١٤ هـ وقد أرّخت وفاته، والتاريخ في مجموعي الأدبي[١].

* محمد أمين بن علي بن عبد الرحمن الحنفي الشهير ببالي زاده، رحمه الله تعالى، قال عنه: هو المفرد العالم، الشهيرة فضائله اشتهار نور على علم، برع في علم الفقه ونبغ، وبلغ فيه رتبة الشيوخ، وهو صغير ما بلغ، ولم يزل يستكثر منه ويستزيد، حتى ولي منصب إفتاء الحنفية، فصار يفتي ويفيض ويفيد، مع ما تحلّى به من بقية العلوم العربية والفنون الأدبية والحديثية، وكان ملازماً للتحصيل، وما ترك قطُّ من دروس شيخنا وشيخه الشيخ عثمان إلا القليل. وهو من أجل الخطباء والأئمة، في مسجد خير الأمة. وله: الفتاوى التي أفتَى بها، وقد اعتنى بها ورتبها. وحاشية على الفن الثاني من الأشباه والنظائر. وحاشية على منسك الدر المختار، وتذكرة نفيسة قيّد فيها الأوابد، وجمع النوادر والشوارد. وكان يحفظ متن الكنز، والألفية، ولامية الأفعال، وغير ذلك. وتوفي رحمه الله تعالى ١٢ في شهر ربيع الأول في سنة ١٢٢٠ هـ وأنا بقسطنطينية، فرثيته بقصيدة دالية مطلعها:

ما لصرفِ الردى طغَى وتمرّدْ
وسطَا في الملا بعضِبٍ مجرّدْ

وأرّختها ببيت واحد، وهي في مجموعتي الأدبية[٢].

ومولد شيخنا المرحوم محمد أمين أفندي بالي زاده سنة ١١٦٤ هـ.

---

(١) يقصد بمجموعه الأدبي في الغالب ديوانه، فقد اعتادوا التأريخ شعراً. ولكن ما أشار إليه غير موجود في هذه المجموعة التي بين أيدينا.

(٢) ليست موجودة بالديوان.

* الشيخ الحاج أمين أفندي المُوره لي، مدرّس مدرسة السلطان مصطفى خان بدار الخلافة[1].

* الشيخ صالح بن محمد بن نوح العمري الفُلّاني المسُّوفي المغربي، ثم المدني، المتوفى بالمدينة سنة ١٢١٨ هـ، ومن تصانيفه: (قطف الثمر في رفع أسانيد المصنفات في الفنون والأثر)، ذكرَ مشيخته له في إجازته للشيخ عارف حكمة[2].

صِلاتــــه:

وكانت للزللي صِلات علمية وأدبية كثيرة بعلماء وأدباء عصره، فمن داخل المدينة الشاعرُ حسن بو سنوي المتوفى بعد سنة ١٢٥٣ هـ الذي كان معه على صلة وثيقة وعلاقة متينة، تدل عليها بعض المراسلات الشعرية التي كانت تتم بينهما، وتشطير أحدهما شعر الآخر أو تخميسه[3]. كما تدل عليها الخطبتان التاليتان اللتان ألقاهما الشاعر البوسنوي في مناسبة زواج محمد أسعد ولد شاعرنا الزللي من عائشة بنت زين عبد الواحد.

* أولاهما: كانت بمناسبة تسليمه مهرها وهي[4]:

يا من صباحُ الفضل منه سعيدْ
والعمْرُ بالأفراح ما لاح: عيدْ

---

(١) المرجع السابق الورقة ٤٦.

(٢) شهي النغم ص ١٨٩.

(٣) انظر ص ١٨٠ـ١٨١ من الجزء المضاف للديوان.

(٤) ديوان البوسنوي المخطوط ص ٣٣٨.

وبـالـتـحـلـّي بـعـقـود الـرضـا
من درّ آلائـه لـلكـلِّ جـيـد
وهـو الـقـريب المـرتجَى خيـرُه
ولـيس من شـيء علـيـه بـعـيـد
والـواهـب المعـطي، وليّ الـعـطا
وجـوده في كـل آنٍ جـديـد
والخَـلْق والأمـرُ ـ تـعـالى ـ لـه
يفعـل في أحكـامـه مـا يـريـدْ
يـبـدأ بـالإحـسـان من فـضـلـه
ولـلعـطايـا في الـبـرايـا يـعـيـدْ
وبـيـتـه المـعـمـور مَـنْ أَمَّـه
نـال من المقصـود بيت القصيـدْ
وعـاش في ظـل أمـانٍ بـه
وخفْضِ عيش بـالـتهـاني رغـيـد
سـبحـانـه مـن خـالقٍ مـبـدىء
في خلقـه، سبحـانـه مِنْ مُعيـد
ربٌّ مجـيـبٌ ومَجـيـدٌ عُـلاً
والخـيـر من يـرجـوه منـه مجيـد
وفّـقَ مَـنْ شـاء لمـا شـاء مِـنْ
حمـدٍ لـه، وهـو الغنيُّ الحـمـيـد

إنّا نتلقَّى من واردات المواهب اللدنية المخبّأةِ أبكارُ عرائسها تحت أستاركن، ما به نترقّى في مقامات عطاياها الإحسانية، لتقرّ بمرآها حين تزف: الأعين. وتلتقط بأناملها الحسنة الأيادي، المتزينة

بأحسن الخواتم منها المبادىء، جواهرَ الإخلاص بالحمد من معدن التوفيق، نحمدك به يا من حُسْنُ العبد فيه تحقيق، ونشكرك والشكر انتهاج، لما للمزيد من ابتهاج، بفرائد النعم والأزواج، فهو مرقاة وصولٍ ومن تسنيمٍ له المزاج، شكراً ينشرح به الصدر وتقرّ العين، وتنال به زين الشرف وشرف الزين، وتعلن بالكلمة التي ذِكْرُها ينفع، ووتْرها بالسعادة الأزلية يشفع. فنشهد أن لا إله إلا الله، الواحد في ذاته وصفاته، الغنيُّ المنعِم على عبده بأسنى وأسمى هباته، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ونبيّه والرسول، النائل من القرب إليه كل فضل مع سُول، ونصلّي أجمل صلاة وأكمل تسليم، عليه وعلى آله الذين لهم المجد: حديثه والقديم، وأصحابه الذين يحبونه ويحبهم، ورضوا عن المولى ورضي عنهم، ما لاحت أشائر الأفراح، وانتعشت ببشائرها الأرواح، وما صدح خطيبها في جُمَع، وشنّف بفرائد كلماته السمع. وهو أحمد من يحمد، وله الفضل الذي لا يجحد، وما بدت شموس الأماني بمباديها تتلألأ، ودارت كؤوس التهاني على الراحات من أياديها تتوالى.

أما بعد: فإنه لما كان التأهل من المرابع، التي يحسن التمتع فيما لها من المراتع، وقد سقَتِ الشريعةُ العذبة روضه، وملأت من كل جهة بفيضها حوضه، حتى صار حديقة، ذات بهجة أنيقة، تطيب فيها الغروس، وتثمر بما تشتهيه النفوس، من كل فرْع حسنٍ نابت، من طيب أصله الثابت، سما في أرضه المقدسة ونما، وصار شجرة أصلها في السما، رغب أن يقال مع من به قال، بما لقامات غصونه الموائد من ظلال، ليأمن بها من فتنة كل هاجرة، ويعود بنفس مطمئنة عن الوقوع في حرّها زاجرة، وليدوم منه بعيشة راضية ونعيم مقيم،

فوق أكمام أزاهره تحت أذيال ما للطف اللطف من نسيم، رغبة في سنّة الحبيب الذي من رغب عن سنّته فليس منه، وعَمَلاً بكل ما رُوي في ذلك من الأحاديث عنه، الشاب الذي هو كالنجم في سموّه، وبدر كماله كالهلال في نموّه، الدّالة مباديه على بلوغه مراتب الكمال، ولنفوس العلياء وصالح الأعمال فيه آمال، المنتشق نفحات روض التوفيق النديّ، المحترم المكرّم: محمد أسعد أفندي، نجل الفاضل الذي لا يضاهى، وبمثله الدهر يتباهى، وعدّ كماله لا يتناهى، وقد حاز من كل صفة كمالٍ أسماها وأسناها، بدر أفق العلماء، الذين هم كالنجوم في السماء، شيخنا[1] اللائحة أنوار كمالاته للمجتني والمجتلي، وهو العالم الفاضل الخطيب محمد أمين أفندي الزيله لي، فوجه إلى ناديكم الرفيع شرفُه، المتمسك بالظرف من كل جهة طرفُه، هؤلاء الأماجد الذين لهم الوجوه الغر، وهي في سماء المنازل كالنجوم الزهر، خاطبين الدرّة، التي هي لوجه الزين غرّة، الحائزة من الخفر مكانة، والموصوفة بالديانة والأمانة، مَنْ اسمها فيما بينكم معلوم، لا زالت في طيب عيش يدوم، ونرجو من لطف الشمائل للمنتشق، ومنها خطرات النسيم تُسترق، أن تمنّوا عليه بهبات قبول، تجرّ من روض الرضا الذيول. هذا ونرجو الله الذي من دعاه أجابه، وكشف له عن مخدرات عطائه حجابه، أن يتمّم هذه المسرّة كما بنعمتها بدأ، ويجعل صاحبها في خير أبداً، ويحسّن العواقب للجميع، بجاه الحبيب الشفيع[2]، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) هذا يدل على أنه كان من تلاميذ الزلي، رغم أنه كان أكبر منه سنّاً، وقد يكون عبّر عنه بشيخنا لإجازته له.

(٢) للعلماء في التوسل بجاه الرسول ﷺ كلام معروف، وخير مرجع لذلك كتاب =

*وثانيهما: كانت عبارة عن خطبة النكاح أو عقد القـران، وهي:

أبهى ابتداء تزف عرائسه على منصات اللسان، من كل بليغ لعين البلاغة إنسان، ولوجهها حسّان، تنتظم بواسطة جواهر كلماته الحِسـان، عقودُ المسـرّات بسلوك الحسن الفـائق والإحسـان، وفق اجتراح، للأماني التي بنيلها للصـدر رأي انشراح، وأسنى وأسمى قولٍ وعْدُه بالإجادة إنجاز، ولكَلِمه[1] الطيِّبِ في الإفادة الإعجاز مع الإيجاز، وحقيقة الانتهاج به للابتهاج بمشهد الأفراح مجاز، وبه يشهد الناسك السالك، كعبتها الغرّاء بلا حجاب ولا حجاز:

ويُحْمَـد المســرى بليـلِ الـرجـا
إذا بـدا بـالنُّجْـح منهـا الصبـاحْ

وخير لفظٍ دلَّ يجتليه طرفُ السمع من حَسَن، من كل ما يقال في معناه: تبارك الله أحسن، وبه يؤدي القائل بعض[2] ما فرض عليه الفضل وسنّ، وبنوره لعين البصيرة تنبيه[3] من نومها والوسن.

مـتى بـه سـرّاً دعـا أو عـلى
رؤوسِ أشـهـادٍ بـلالُ الـفـلاح

حمْدَ القريب المجيب الذي يحب الحمد والمدح، ولهزار الأماني في روض نعمائه يحسن الصدح، وما الحمد غير إلهام منه سبحانه

= (التوسل والوسيلة) لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) في الأصل: (ولكلمة).

(٢) في الأصل: (بعد).

(٣) في الأصل: (نبيه).

وتعالى وفتح، وقبل ارتداد الطرف يأتي آصف العناية إلى الروع بعرشها والصرح.

من حيث لم يعلم ولم يحتسب
من أي روض فائحُ اللطف فاح

أحمده حمداً ما مرّ وِرْدُه بحزب إلّا حلا، وسما به الحامد على الأقران بفضل الله جلّ وعلا، وهو آية التعجيز لمن تقدم وتلا، وما سوى زهرة الحياة في الطيب كلا.

تحيي صَباه الروحَ بالنَّشر في
غدوّها أنَّى سرتْ والرّواح

حمداً يؤمه بارتشاف بريق التوفيق: مَنْ ثغرُه مشهود، تُجتلَى به عروس الأماني، فتروق العيون من كل الوجوه بالشهود، وتزف على الراحات من أياديه كؤوس التهاني، فتُروي الصدور بالورود وعلى بكر حميّاها تتحلّى من الحُباب تاجَ درٍّ نوراني وعقود.

تكاد أن تسكر باسمٍ لها
إذا به الصادح يا صاحِ صاحْ

وأنتقل إلى معدن فضائل الفضل المصون المكنون، الكائن كنْزُه الذي لا ينفد: بين الكاف والنون، جازماً بنُجْح العزم في الحركة والسكون، مشاهد بجميل الظنون، ما من الخير يكون.

فالله عند الظن من عبده
وإن للسائل منه امتناح

وأقدّم للالتقاط من جنات فرائده الجياد، شكراً جزيل القدر

جميلاً وكله أياد، أنظم بأناملها أبهى عقود تتحلى بها الأجياد، من أبكار الآلاء التي الأيام بها جُمَع وأعياد.

آلاءُ أفــراحٍ بهــا راحــة
بهــا إلى الأرواحِ أيّ ارتــيــاح

شكراً أشكرك به يا من ينجز بالمزيد ما وعد، شكراً أنال به الآمال في صالح الأعمال، وأُسْعَف بها وأَسْعد، شكراً كلما ختمت آياته قلت: عوداً على بدء والعَوْدُ أحمدُ، شكراً مِزاجُ منهله العذب من تسنيم به أتحلَّى وأتعلَّى إلى المعالي وأصعد.

شــكــراً أتــاح الــلهُ أسـبــابَـه
والخــيرُ مــنــه كــلَّ آنٍ مُــتــاح

وأتوجه مـع حسن النية في الفعـل والقول، إلى كعبـة حرم التوجيه لمن له العزّة والطَّول، مستعيناً بما للعناية الربانية من قـوة وحَوْل، ومستعيذاً بحماها الدائم خيره وآمناً من الشر والهول.

فـفي الـســماء البــدرُ لا يختشــي
وإن تُــطل أرضٌ عـلـيــه النُّبــاح

وأصدع بكلمته التي يحصل بها (التصويب)[1] والإصعاد، إلى التلقي لما لنعمائها من الإسعاف بالمراد والإسعاد، مع التحلّي بجواهر اليقين والإخلاص في الاعتقاد، والتخلّي عن كل ما يخدش صحته باعتلال وانتقاد.

وكــل طــعــن يــتّــقــي شــكَّــه
وكــلّ مــا يحــدث فـيــه جــراح

---

(١) في الأصل (بها والإصعاد).

وأشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له واجب الوجود، والفرد الجامع الذي تولّي الوجوه شكراً لبيت فضله وتعنو له بالركوع والسجود، شهادة من غرق في عين الوحدة واستغرق الأفكار بالشهود، وغلا في التفرقة والجمع لا يرى ولا يسمع إلا بها في كل أمر مشهود.

شهادة أنوارٍ إثباتها
بها ظلامُ الشرك قطعاً يزاح

شهادة مَنْ لو أقسم على الله تعالى لأبرّ قَسَمَه وأجاب، ولم يَزْدَدْ على ما عنده من اليقين إذا ما انجاب عنه الحجاب، وهي مفتاح لكل ما لجنان النعيم من باب، لا يختشي الرد من وقف بها وقفة السائل على الأعتاب.

فمن رجا الفتح بإذن لها
ألقى عصا السير بها واستراح

وهو سبحانه الملك الحقّ الواحد الأحد، والفرد الصمد، المنزّه عن الصاحبة والولد، والذي لم يكن له سبحانه وتعالى كفؤاً أحد، ولم ينفد ما في خزائنه وقدْرُ ما أنفق جلَّ عن حصرٍ وَعَدْ.

بَرٌّ طما بالبِرِّ بحر العطا
منه، وللكلّ إليه طِماح

إلّه خلق آدم على صورته وخطب وأثنى على نفسه، وزوّجه من أَمتِه حوّاء وأشهدَ عزّ وجلّ ملائكة قدسه، وأسكنه مع عرسه بدار كرامته وأنسه، ثم أهبطه إلى ما خلق منه ليخرجه تارة أخرى من رمسه.

لحكمةٍ عن قرب إدراكها
لكل البرايا اتّراح

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الراقي إلى قاب قوسين، مَنْ هدى به اللّهُ من الضلالة، وبصّر من العماية، وجلا عن البصائر غَيْنْ[1] الرين، وزان بكمال وجوده وجماله الوجود بأبهى وأزهى زين، وحبّب إليه النساء وجعل في الصلاة له قُرّة عين.

وحرّم الدهر سفاحاً به
وللورى فضلاً أحلّ النكاح

نبيٌّ قد اختاره الرب القديم من سابق القدم، ولولاه لم تخرج الدنيا بأسرها من غامض العدم[2]، وكم حاز من كرم الأخلاق ما لا يحصى بعدّ وكمّ، ومدحُه فاهَ به الذكرُ الحكيم وبرفعة قدرِه حَكَم.

وكم غليلٍ وعليلٍ شفى
ما فيه[3]، يُروَى مسنداً عن صحاح

طه[4] الذي شريعته الصافية البيضاء دائمة التشريع، والأيام بفيضها على اختلاف فصولها في الأحوال ربيع، زهرة الحياة متى سُقِيت أصولُها بمائها الواحد حَسُن لها بالنفع التفريع، وسطعت أنوارها بما يضوع نشره من ضائع البر لا بما سدىً يضيع.

وهبّ من أكمامها نافح
يمسّك الكون بذيل النفاح

---

(١) الغين: الغيم.
(٢) هذه فكرة صوفية ليس لها سند صحيح.
(٣) كل ذلك بإذن الله.
(٤) طه: لم يثبت أن هذا من أسمائه ﷺ، وإن ذكره البيهقي في الجزء الأول من شمائله.

وارتشف من بمعين مراحمه المحيط بالعالم بحرُها، وكل رحمة تهمي في قطر من البر فمنها يمطر وينهلّ قطرُها، رشفة تُروي الأحشاء بدَرِّها، ولله في الأفواه دَرُّها، حتى يمتلىء حوضها ويقول: قَطْني، ويسيل سيلها ويجري نهرُها.

وكــلّ صــادٍ شــام عـينـاً لهـا
يــزول عــنــه ظـمـأٌ والْـتِـيـاح

وهي طعام طعم ولسقم القلوب شفا[1]، وماء وزاد يوصل بالبركة لدار الصفا، والقيام بأداء بعض الحقوق لجنابه المصطفى، المبعوث بجوامع الكَلِم وكمال الوفا.

وإنــه أجــود بــالخــير في
عــطائــه من مُــرسِـلات الــريـاح

وذلك بإهداء أوفَى صلاة عليه وأوفر تسليم، لاحّاً على شرط المحبة فيه من خير قلب بالحب سليم، ولهما كل حين بالتردّد على مقامه الشريف النبأ العظيم[2] وهو خير الخلق لأهله وعلى خلق عظيم، وبالمؤمنين رحيم.

مــن حــضــرة الــربّ أتى رحمــة
زال بهــا مـا ســاد والكـرب زاح

صلى الله وسلم عليه وعلى آله سفن النجاة والأمان[3]، والقوم الذين لا تحصى مدائحهم ولو أن العالَم حسّان، وللحكم لقمان،

---

(١) يعني أنه ﷺ شفى القلوب بالتوحيد، من شركها وضلالها.

(٢) قال ﷺ: لا تجعلوا قبري عيداً.

(٣) إنما النجاة والأمان في اتباع ما جاء به الرسول ﷺ.

وكم من وليّ وقطب[1] عارف منهم إذا ما دعا أُجيب كآصف سليمان، قوم لهم الشرف القديم، الذي يودّ كل عظيم، أن يكون لبيته سَلْمان.

حازوا تليد المجد مَعْ طارف
من قبل أن يدحُو ذي الأرضَ داح

أماجِدُ إذا ما حضروا فهم الناس، وإذا ما غابوا فلا أحد، ولهم من النسب الطاهر الشريف ما تطهيره من الأقذاء بالنص معتقد، ومن وجد في نفسه حرجاً منه فيا بئسما وجد، من الظلمة التي بها: نور البشاشة فقد،

وحبّهم فرض أكيدٌ على
كلِّ امرىء، والبغضُ كفر صُراح

وعلى أصحابه الرؤوس الوجوه الأعيان، الأكياس الذين دانوا النفوس بما يُرضي الديان، وباعوا الأرواح وربحوا في تجارتهم التي لن تبور: الجِنان، ورضي عنهم ورضوا عنه ففازوا بمغفرة منه ورضوان.

وفي دار خُلْد منتهى المشتهى
يا فوزَ مَنْ أمَّ إليها وراح

يدخلونها بتحية وسلام من كل باب، ويتكئون فيها على الأرائك وعندهم قاصرات الطرف أتراب، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب، وكأس من معين بيضاء لذة للشاربين من لذيذ شراب.

---

(١) هذا تعبير صوفي من إفرازات تلك العصور. وقد كانت الصوفية مما امتحن به المسلمون.

ملك كبيرٌ في رحابٍ له
سَلْ ما طرَى من مُنيةٍ واقتراح

صلاة وسلاماً هما للفرح يدان، وكلتاهما يمين، وجنَى الجنتين منهما للأنفس: دان، بما يطيب للقاطفين، وإذا ما رُفع بالراحة من الداعي بهما الساعدان[1]، فاز من الإجابة بالتأمين، وعاش برفعة قدرٍ دونها في مطالع السعد الفرقدان، وهو بأسعد حظ في منازله أمين.

في خير عيش لكرام سما
بمثله الأيامُ دوماً شحاح

ما زفت عرائس نفائس العطايا للبرايا، مما للمواهب اللدُنية من خبايا زوايا، وقدمت حلاوة التهاني بأطباقها المفتر بها الثنايا: هدايا، في صواني التعظيم من معاشر الكرام الذين سادوا وشادوا مزايا وسجايا.

وما بدا وجهُ فلاحِ المنى
وبابتسام لاح ثغرُ الملاح

أما بعد: فإن الاتباع أعلى ما يهتم به ذو التوفيق، ويسير ويرى بنهجه القويم وله من الإخلاص رفيقٌ، ولنيته الحسنة حسن ظنه بالسلامة تحقيقُ تصديق، ورجاؤه من كل الوجوه بالإثابة عين التحقيق.

فإن مَنْ أوفَى عليّاً علا
ومعْ نجاةٍ حاز كل النجاح

(١) الصلاة والتسليم على الرسول ﷺ من كسب الإنسان الذي يجوز له التوسل به.

وذلك في جميع ما جاء به مَنْ لا ينطق عن الهوى، الصادق المصدوق في كل ما صدع بحديثه وعن القديم سبحانه روى، القائل: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىءٍ ما نوى)[1]، وقد تركنا على البيضاء التي لم يملّ من الأحمر والأسود عن سوادها الأعظم إلا من غوى.

وما اهتدى قلباً ولكنه
مِنْ شاهقٍ في هوّة الإثم طاح

ومما علا به الأرض نوراً شرعُه الذي سما، وكان شجرة أصلها ثابت وفرعها في السما، النكاح الكائن حرمه حمى لما به احتمى، وبأهل بيته المعمور إليه بالانتساب انتمى.

وبالصفا مشكورُ سعيٍ غدا
يرعى وجوهَ البر منه الصباح

وهو تميمةُ الآخذ بها ينفع لا كالتمائم، ومسكة دينِ التحلّي بزينتها عاصم، من الوقوع في الحرج للمعاصم، ووليمته العظمى من أعظم الولائم، وأوجب ما تتوجه إليه الوجوه بالعزائم.

من قبل أن ترشف شمسُ الضحى
ريقَ الغوادي من ثغور الأقاح

ولله منه روض ينفس ويحسن وهو بآراج السنّة أريج، وثمر بما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين من كل زوج بهيج، وللصدور بمرآه

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الوحي (باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ) رقم ١ وفي أبواب أخرى كما رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

انشراح، ولوجوه المسرة تبليج وتبريج، ولثغورها المتزينة بالتفليج ابتسام، وللقلوب تفريج وتأريج.

من كل ما يمدح مجموعه
وحق للمادح فيه امتداح

وأكرم وأنعم بأبناء عزّ لاحوا للرئاسة إخواناً، وشرفوا بالفعل الجميل وجلوا من مكارم الأخلاق ألواناً، وكانوا لسلطان المسرات به وزراء خير وأعواناً، وأقاموا إليه بالنظام في أحسن سموطه ونصبوا ديواناً.

وتمّم المعروف كل امرئ
منهم سما قدراً بفعلِ السَّماح

من القوم الذين جمعهم غيثُ لطفٍ في المحل، ولكلٍّ منهم في طيبة الطيبة العقدُ في الأمور والحل، وما حلّوا في محفل إلا عنه بالإيناس الإيحاشُ ارتحل، ويا حبّذا هم لبياض أعيان العلياء من سواد، ولجفونها من كحل.

بيضُ وجوهٍ وأيادٍ عَلَتْ
بها لبابِ الخير يرجى انفتاح

وأعظم بقاضٍ تضلع من عين الشريعة، التي ما سواها يحسبه الظمآن ماء وهو سراب بقيعة، وإجابته لطالب الحُكْم كالمنحدر السائل سريعة، وقد حوى فنون الفضل في الفروع والأصول لما كان ربيعه.

يا حبّذا مولى بأحكامه
مثبت حق، وهو للزيغ ماحْ

* * *

مولى على الكل تفضيلاً عـلا وسما

والحمد قد حـاز في فعل لـه وسما

مـولى عـظيم تسـامى قـدره عِـظَما

بـالحلم والعلم ما بـين الملا عَـظُما

مـولى له حسن عـرف بالنـظام بدا

وفــوق كــل رؤوسٍ راقَ منتــظما

في مشكلات القضايا فصلُ منطقة

كم مشكل حدُّه المسنونُ قد فصـما

أنعِمْ بـه حكَماً يُبـدي لنا حِكَـما

في حُكْمه كل ما في مطلب حَكَـما

لا زال بــدرَ كـمــال في منــازلـه

وفي مطالع مجـدٍ فوق شمسٍ سـما

ومـا ابتـدا بجميــل من مكـارمـه

إلا بــأحسن تـكميــل لــه ختـما

ومحافظ على الجناب علا جاهاً عظيماً وقدراً، ليث غابٍ حطّ مَنْ شقّ عصـا المسلمين وركب من الملحـدين شُقْراً، وشفى لـلإسلام صدراً، مِنْ كل مَنْ تولى للفتنة كبراً، ووردت أرشية رماحه قلْبَ قلوبهم ولم تدع من دمائهم غدراً.

وبـاجتـلا صبـحِ انتصـارِ الهـدى

شــروق فــتــان الأعــادي أزاح

* * *

دامت عـلى من بغى أسيافهـا نقـماً

ولـلمـوالي لــه ألــطافهـا نـعـما

ودام يـصــطـدم الأبــطـال مبـتـسـاً
إذا بــدا الليث بــالتعبيس متّسـما

ونـائـلاً[1] حسنَ تـوفيق يفـوز بــه
فـوزاً عـظيــماً تعـالى قــدْرُه عِـظَما

وفــاعــلاً كــلَّ خــير فعلُه حسَنٌ
من خير فعل به حُسْنُ الثواب نما

وراحمــاً كــلَّ فــرد في ولايــتــه
فــإنما يــرحم الــرحمنُ من رحمـا

مــراعـيــاً عــينَ طــه في مجـاوره
فــألفُ عـين لعــين تلتقي كـرمـا

وحــائـزاً خــيرَ حظ من شفـاعتــه
يوم الحساب إذا ما الخطب قد عَظُما

وذوي فتوى أفادوا بجمعٍ من الفضائل في مسائل شتى، وكلٌّ منهم دخل بين الله وبين عباده فيما أخرج من الفتيا في باب العلم وبه أفتى، وأفاد بما لا عوج فيه ولا أمتا، وكسا أعطاف الرئاسة وقاراً وسمتا.

أقــلامــه الــعُـجْــم لهــا ألــسُــنٌ
في صحف الأوراق، عُرْبٌ صحاح

ورئيس خطابة كل سرور بفضل فهو والده، وكل إمام وخطيب له من فعل الخطاب طريفُه في الإجادة تالدُه، وعالم جليل قيد الأوابد في العلوم فوائده، وبالصلات بها تعود من ضمائره للطالبين عوائده.

---

(١) في الأصل (دونال).

متى أتى السائلُ أبوابه
ورام منها بالفهوم افتتاح

وشريف فرع مجد لا يضاهَى شرفُه أصلاً، ولا يتناهى عدّ بعض فضائله فضلاً عن كلها فضلاً، دُرِّيّ شعب المناقب ـ وأهل مكة أدرى بشعابها ـ حَزَناً وسهلاً، من القوم الذين هم لكل مكرمة ومعروف مازالوا أهلاً.

من تعرف البطحاء مسعاهمُ
متى سعوا ما بين تلك البطاح

وأغوات سادات فازوا بخدمة نبي الهدى، ولهم بمسجده الشريف التعميرُ والتنويرُ أبداً، وقد حازوا من السعادة بالقرب إليه ما لم تنله البعداء.

وإذا سخّر الإلّه أُناساً
لسعيدٍ فإنهمْ سعداء

* * *

ففي صباح ومساء لهمْ
كرٌّ على أبوابه وانطراح[1]

وكبار عساكر أقاموا بالسيف المسنون فروض الجهاد، وكلموا الأعداء ولكن بألسنةِ السلاح الحداد، وما منهم غير مسعر حرب إذا ما حمي وطيس الجلاد، لا يسأل عن كثرة أعداد المعادي بل أين حلّ من البلاد.

---

(١) لا يصحّ هذا ولا يقبل إلا على مجاز بعيد.

كــأن طــيــاب المــوت في ذوقــه
شهـد حـلا مـا مـرّ أو كـأس راح

ونَدْبُ مهماتٍ قائم بالأمور للمرتجي، وناظر بالنظر السديد لمن يروح لها ويجيء، ومتى ما قعد القصد متأخراً دعا له قم قم جي، وهو خليل الرئاسة بطابة الطيبة والمنجي.

يــقــوم بــالجُــلَّى إذا مــا دعــت
من كل شاكٍ وهـو شاكي السـلاح

ومشائخ فخام لهم الوقـار والكمال، والتجمّـل بما للجميـل والعمل الصالـح من جمال، وكهـول يَفَعةٌ كـلٌّ منهم يمين المـروءة والشمال، يميل لمكارم الأخلاق ويعدّها من خير مالٍ إليه مال.

من جيــرة الهــادي الــذي جــارُه
مــا إنْ لــه عن فضله من بَــراح

عِقْدٌ كَمُلَ من النجوم الزُّهر لا من الدر الثمين، بأيدي الحسن المشتملة على راحة اليسار ومساعد المساعدة باليمين، يُحِل مادحه مهما قال في مدحه وأقسم بصدقٍ ولا يمين، وكل ما فيه فهو الحسن القائم بالثناء الجميل لمن هو لدولة لطفه الأمين.

أمــينُ كــنــز الفــضــل، مَــنْ دُرُّه
بــه لكــل الكــون لاحَ اتّــشــاح

وإنه الفاضل المفرد بكمالاته ألوفاً لا ألفاً، والعالم اللسِن المنطق المصيب الذي إذا قال لم ينطق أمام القوم خُلفاً، ولم يدع قولاً لقائل يجيل فيه بعده حرفاً، وفرائد فضائله لم تزل لأُذن الدهر الأصم شنفاً.

لازال في عزٍّ وفي رفعةٍ
آمِنَ ذاتٍ من حسودٍ ولاح

وحقّ لهذه المنحة التي برفعة قدرها المولى قد درى، وجرى بوصفها القلم وجفّ بما في الخاطر طرأ، ولم يتوقف في طاعة من برأ، أن تجمع لها الرؤوس والأعيان والأمراء، وينوّه بعلوّ شأنها بين الرؤساء والكبراء.

لأنها أعظم نعمةٍ بدت
بها لوجه الحق لاح اتّضاح

في حديقة ذات بهجة حسنة سنيّة، فواكه الأماني فيها دانية القطوف جنية، وكؤوس التهاني من سلسبيلها سائغة هنيّة، ويطلب من كل فرد أن يؤدي بها فروض الإجابة وكيف لا وإنها العينيّة.؟

يا حسنَها من روضة للصفا
فيها اغتباق قد لاح واصطباح[1]

ولما كفّ النسيم للأدب عن ترنيح قامات أغصانها، وأطرقت حمائمها بعد التأهيل والترحيب عن الإعراب عما في ضمائرها بألحانها، وفتحت الأزاهر للاستماع آذان سوسانها[1]، ونبهت للنظر فيما يعنيها من نرجسها جفون أعيانها.

ومن صفا الحوض جناناً حوت
يحكي سنا المرآة فيه القراح

وقام النَّد للتوقير على الأقدام ووضع على الرأس العمامة، وتمثل لمن نظر إليه ورأى جسمه لخدِّ الحسن خالاً وشامة، ولزم العُود من

(١) كذا في الأصل.

مجامره مكانه وحفظ مقامه، ورفع من غمائم نفحاته لمن قال بظلالها أعلامه.

والـــورد لـلتـــطـيـيـب قـم قـم دعـــا
وطـــاب لـلأنفـــاس منـه انتضـــاح

حسن لنا أن نأتي بملك الكلام الذي لشمس دولته كل آنٍ إشراق، وللعيون إذا ما تلا سكون وللقلوب المطمئنة لإلقاء السمع إطراق، كلام الغني عما سواه في الأمـور بأسـرها عـلى الإطلاق، وأحاديث وزير ملكه في هذه النعمة التي هي من أعظم نِعَم الخلّاق.

لأنها حـصـن حـصـين لمـن بهـــا
اتـقـى سـهـم الـردى مـن رداح

قال الملك الحق سبحانه وهو الكريم الذي قطرةٌ من بحر كرمه تُروي العالم بلا زحمة: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾[1]. وقال عزّ شأنه، وهو جلّ وعلا أصدق قائل: ﴿يا أيها النـاس إنّا خلقنـاكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل﴾[2]، ومن الأحاديث التي لم تزل بها صوادح روض السنّة صادحة، قوله عليه الصلاة والسلام: (الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة)[3]، وقوله عليه أفضل الصلاة والتسليم: (انكَحُـوا فإني مكـاثر بكم)[4]، وقـوله وهـو الهادي إلى الصـراط

(١) غافـر: ٢١.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) رواه مسلم في كتاب الرضاع (باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة) رقم ١٤٦٨.
(٤) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح (باب تزويج الحرائر والولود) رقم ١٨٦٣ وقال في الزوائد في إسناده طلحة بن عمرو المكي الحضرمي، متفق على تضعيفه.

المستقيم: (زوّجوا أبناءكم وبناتكم)[1]، وقوله ـ لا زالت تطيب بترتيل الصلوات عليه والتسليمات الأفواه: (حق على الله عون من نكح التماس العفاف عما حرم الله)[2]. ومنها: (التمسوا الرزق بالنكاح)[3]، كما أفصح عنه الإفصاح، عن الثعلبي الكبير. و: (تزوجوا الأبكار فإنهن أعذب أفواهاً، وأنتق أرحاماً، وأرضى باليسير)[4]، وحديث: (حفظ شطر الدين، وترقى ركعتي المتزوج إلى اثنين وثمانين، ومسكين مسكين رجل ليست له امرأة وامرأة ليس لها زوج مسكينة مسكينة، وأيما شاب تزوّج في حداثة سنه عجّ شيطانه: يا ويله.!. عصم مني دينه)[5]. وغير هذا مما لذّ سماعه وهو ممّن لاذ به أقوى وأحلى ملاذ، ومهما أطال في وصفه المستعيذ من الفتن بحماه يسمع ولا يقال له: أفتّان أنت يا معاذ؟ ولقد كفى من وابل هذه النعمة العامة الرذاذ، فتزوّد منها بما يوصل إلى التقوى وعشّ من همٍّ الرزق خفيف الحاذ.

واجنح لحسن الحظ في جود من
إليه يسمو في الأمور اجتناح

---

(١) رواه الديلمي في «مسند» الفردوس، عن ابن عمر. ضعفه السيوطي ووافقه المناوي.
(٢) رواه ابن عدي في «الكامل» عن أبي هريرة، وهو ضعيف كما في «فيض القدير».
(٣) رواه ابن ماجه في كتاب النكاح (باب تزويج الأبكار) رقم ١٨٦١ وقال في الزوائد: في إسناده محمد بن طلحة. قال فيه أبو حاتم: لا يحتج به. وقال ابن حبان: هو من الثقات، ربما أخطأه عبد الرحمن بن سالم بن عتبة (شيخه). قال البخاري: لم يصح حديثه.
(٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني عن ابن مسعود وفيه أبو بلال الأشعري، ضعفه الدارقطني «مجمع الزوائد» ٤/٢٥٩.
(٥) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط عن أبي نجيح، ورجاله ثقات، إلّا أن أبا نجيح ليس له صحته «مجمع الزوائد» ٤/٢٥٢.

وبالجملة فهو من النعم الحسان، التي يجب أن يتحدث بذكرها كل إنسان، وبإخلاص الجنان يطلق اللسان، بأداء بعض حمدها والشكران.

فـالحـمـد لله وليّ الـثـنـا
حمـداً لـه حسن انتهـا وافـتتـاح

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون﴾[١]، ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الـذي تساءلـون به والأرحـام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[٢]، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطِع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾[٣].

الحمدُ لله المحمود بنعمته، المعبود بقدرته، المُطاع بسلطانه، المرهوب من عذابه وسطوته، النافذ أمره في سمائه وأرضه، الذي خلق الخلق بقدرته، وميّزهم بأحكامه وأعزّهم بدينه، وأكرمهم بنبيّه محمد ﷺ، إن الله تبارك اسمه وتعالت عظمته جعل المصاهرة سبباً لاحقاً وأمراً مفترضاً أو شجَ به الأرحام، وألزم به الأنام، فقال ـ عزّ

---

(١) آل عمران: ١٠٢.
(٢) النســاء: ١.
(٣) الأحــزاب: ٧٠، ٧١.

من قائل: ﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾[1]، فأمر الله تعالى يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، ولكل قضاء قدر ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب، ﴿ يمحو الله ما يشاء، ويثبت وعنده أُمّ الكتاب ﴾[2].

ثم يقول: (اللهمّ كما مننتَ ويسّرت، وأعنت بحسن الابتداء لهذا الفرح، وَفْق الأملِ المطلوب المقترح، أن تمنّ له بيُمن المنتهى، على المرجو والمشتهى، وأبقِ بدره ينمو نموّ الهلال، في سماء المحاسن والكمال، بأسعد المنازل والمطالع، التي تروق بشرفها عيون المطالع، واجعل صاحبيه في حصن حصين، ولهما منك حافظ وأمين، وارزقهما الكثير الطيب، الذي يكون بركة على أمّة الطيِّب. وارحم اللهمّ هذا الجمع، برحمة منك دائمة الهمع، تدفع الحَوْبة، بأيدي توبة، تمحو عن الكل، كثر الذنوب والقل. الهمّ واقطع أسباب الاختلاف، ومُنَّ بالحب فيك والائتلاف، وأنزل الغيث، وارفع العيث، وفرّج الأزمة، عن كل الأمة، وأصلِح الشؤون، وحقق الظنون، والطف فيما يكون، في كل حركة وسكون، ومُنَّ بالعافية، وأستار الجميل الضافية، والعيشة الراضية، المغنية الكافية، ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقِنا عذاب النار ﴾[3]، وأحسِن عاقبتنا في الأمور كلها، واجعلنا يا مولانا ممّن له عقبي الدار، وصلِّ وسلِّم على أفضل متكلم قال فغنم، وسكت فسلم، وعلى آله وصحبه أجمعين، في كل وقت وحين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الفرقان: ٥٤.
(٢) الرعد: ٣٩.
(٣) البقرة: ٢٠١.

* هذا وقد جرت بين هذين الشاعرين مداعبات شعرية، وتبادلا كذلك الأحاجي والألغاز التي يدلنا عليها ما أثبتناه في آخر الديوان من المقطوعتين الرائيتين[1].

وكانت للزللي أيضاً علاقات كثيرة بعلماء مصر وأدبائها في أثناء إقامته فيها، منهم:

* الشيخ أحمد عارف حكمة الذي كان آنذاك قاضياً على مصر، ثم تولى قضاء المدينة المنورة، فمشيخة الإسلام بعد ذلك بإستنبول، فقد مدحه بمجموعة من القصائد منها حائيته التي مطلعها:

ديارَ الصِّبا حيّاكِ غادٍ ورائح
يبادر أكناف الحمى ويراوح

وفائيته التي مطلعها:

مليحٌ حكمه نَصَفُ
بهاه فوق ما نَصِفُ

* ومنهم الشيخ حسن العطار، والسيد إسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ واللذان اجتمع معهما على معارضة موشح الصلاح الصفدي الذي مطلعه:

عُق عن الراح كلَّ من عذلا   وقم بنا نحو حانها عجِلا   واشربْ

قال الزُّللي:

مرآك للعين قرّةٌ وجَلا   وفي تلاقيك أمن من وجِلا   يُطلبْ

---

(١) انظر المقطوعتين ٣، ٤ من الإضافة.

وبما قالـــه العطـــار:

أما فؤادي فعنك ما انتقلا فلِمَ تخيّرتَ في الهوى بدلا فاعجب

يـا معرضـاً عن محبّة الـدنفِ
ومغـرمـاً بـالجمـال والصّلفِ
ومن به زاد في الهوى شغفي

أما كفى يا ظلومُ ما حصلا حتى جعلت الصدود والمَلَلا مذهب

فتّشْ فؤادي فليس فيه سوى
شخصِك أيها المليـح ثـوى
قد ضلّ قلبي لسَكْنِـه وغوى

وهكـذا من يحب معتدِلا لم يلقَ إلّا تـأسفـاً وقِـلىً مشرب

ومما قالـــه الخشـــاب:

يهتز كالغصن ماس معتدلاً أطلع بدراً عليه قد سدلا غيهب

يزري بسمر الرماح إن خطرا
سـاحـر جفن لمهجتي سحـرا
علّم عيني البكـاء والسّهـرا

فكيف أبغي بحبـه بـدلا وليس لي عنه - جارَ أو عدَلا - مهرب

وضّـاحُ نـور الجبـين أبلَجُـه
أغيدُ، عذبُ الرّضاب، أفلجُه
وجْـهُ غـرامي عليـه متجـه

فلست أصغي لعاذلٍ عذَلا كلّا، وعنه فلا أحول، ولا أرغب

بل كان العطار لشدة صلتـه به قـد يقترح عليـه النظم في موضوعات معينة، فيستجيب له الزللي وينفّذ له ما يريد، كما تدل عليه المقطوعة (٣٦) من هذا الديوان.

* ومنهم أيضاً الأديب القاهري: أحمد الأزبكاوي، الذي تكشف عن صلته به المقطوعتان: (٣٧، ٣٨).

* ومن ناحية أخرى استطاع الزللي أن يتخذ له مكاناً في البلاط العلوي وينال فيه المنزلة والحظوة، وأكثر ما كانت صلته بالوزير إبراهيم باشا كما سبق أن أشرنا، وكثيراً ما كان الوزير يطلب منه الاشتراك بشعره في مناسبات الدولة الخاصة، ومن ذلك أمره له بنظم قصيدة في شأن النظام الجديد ومدح والده محمد علي باشا، فكانت قصيدته الميمية التي مطلعها:

مديد انتظام في جديد نظام
أصاب، ولم يخطىء مرام مرامي

* وسافر إلى القسطنطينية فكان له فيها شيوخ ورفاق أشرنا إلى بعضهم قبل قليل، كما كان له صلات ببعض أمرائها وكبرائها الذين كانت تشمله بعض أُعطياتهم وهداياهم، ولذلك نراه يخاطب أحدهم سنة ١٢٢٠ هـ - وكان يُدْعَى أحمد شاكر أفندي - بقوله:

أيها المولى الذي راحتُه
أخجلتْ في جودها كفّ السحابه
لست أبغي العتق من رقّي لكمْ
فلهذا لم أجىء وقت الكتابه

* وممّن كان على صلة بهم وامتدحهم من العلماء، الشيخ أحمد الشِّرواني[1] صاحب كتاب (حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح) المتوفى سنة ١٢٥٣ هـ.

---

(١) انظر القصيدة ٥٩.

علمه وأدبه وفضله:

وفّرت له نشأته في بيت والده العالم الخطيب، ومتابعته الدرس في الحلقات العلمية بالمسجد النبوي الشريف على أكابر الشيوخ، ثم احتكاكه بعد ذلك بعلماء الأزهر في مصر، مستوىً علمياً مشهوداً، ومكّنت له في علوم العربية والشريعة، فكان فقيهاً حنفياً معدوداً، ومحدّثاً حافظاً، يجتمع حوله الطلاب، ويحرص العلماء على وصل سندهم به في الرواية، كما كان من أئمة المسجد النبوي وخطبائه المفوّهين. وممّن طلبوا منه الإجازة فأجازهم بمحفوظاته ومرويّاته، شيخ الإسلام عارف حكمة، ونجد في (شهيّ النغم) مثالاً لتلك الإجازات، وهذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي رفع لأهل الحديث مقاماً عليّاً، وجعل منهجهم القويم من بين الطرق واضحاً جليّاً سويّاً، حتى صار فضلهم المشهور على ممر الدهور، كمشكاة فيها مصباح وناهيك بما لها من نور. والصلاة والسلام على أشرف مُرسل، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

وبعد: فإن الفاضل الفاصل، لمهمات الوقائع والمشاكل، قطب دائرة العلوم الذي عليه المدار، والعارف بما للسنّة النبوية من آثار وأخبار، صاحب النقل والنقد، صاحب مطارف الحل والعقد. عين أعيان بني الزهراء، صدر الشريعة الغرّاء، سيدنا ومولانا السيد أحمد عارف بك، قاضي مصر القاهرة حالياً، زاده الله تعالى إجلالاً، وكسا به الوجوه جمالاً، ابن سيدنا العلاّمة المرحوم المبرور، المندرِج في أركان رحمة الرب الغفور، المولى السيد إبراهيم عصمة بك، رئيس العلماء بالقسطنطينية المحمية، والمحلي أجياد المناصب بعقوده الجوهرية، قد

قرأ على هذا العبد الحقير من أول (المشكاة) فصلاً وسمع فصلاً، تواضعاً منه وفضلاً، وطلب الإجازة بهذا الكتاب بخصوصه، وإن كان مجازاً بجميع مروياتي ومسموعاتي على العموم، وأنا قد أجزته به وبما تجوز لي وعني روايته، كما هو محرر لديه ومرسوم، وسندنا في ثبت شيخنا المرحوم الشيخ صالح الفلّاني، ونسأل الله سبحانه أن يبلغنا وإيّاه والمسلمين أجمعين جميع الأماني، إنه الجوّاد الكريم.

وكتبه الفقير المجيز محمد أمين بن حسين الزيله وي بمصر القاهرة، في الخامس من شوال سنة سبع وثلاثين وألف من الهجرة، حامداً مصلياً. انتهى[1].

قال عنه الألوسي مادحاً علمه وفضله، وأدبه وشعره: (الحَبْر الإمام، وبحر الفضل القمقام، نتيجة الدهر، ومَنْ آثارُه سلافة أهل العصر، وأشعاره دمية القصر، ذو الفضل الجليل الجليّ، مولانا الشيخ محمد أمين الزيله وي، وقد كتب لحضرة مولاي، ومعتمدي بعد الله تعالى ورجاي، على (مشكاة المصابيح)، ما شعت أنوار اللطافة من لفظه البليغ الفصيح)[2].

وكان أيضاً معدوداً في الشعراء والأدباء، يرثي ويمدح، ويصف ويتغزل، ويلغز ويعتذر ويعاتب، ويشطر ويخمس ويطرّز ويتبادل مع أصدقائه وأصفيائه الأشعار، ومن أمثلة ذلك القصائد المتبادلة بينه وبين الشاعر القاهري أحمد الأزبكاوي، والشاعر المدني البوسنوي. يقول الألوسي عن بعض تشطيراته: (وشطر هذا، الفاضلُ الذي

---

(١) شهي النغم ص ١٨٨ بتحقيقنا.

(٢) المرجع السابق. والمقصود بمولاه: عارف حكمة.

أُعطي شعرُه شطر الإعجاز، وشاطر فضلاء العصر بلطافة الإطناب والإيجاز محمّد أمين الزيْله وي المدني تغمده الله تعالى بلطفه الهني)[1].

وفي موازنة بينه وبين شعراء عصره الذين امتدحوا شيخ الإسلام عارف حكمة، ومنهم الشاعر العراقي عبد الباقي أفندي العمري قالَ: (وأعلى من ذلك الشعر وأغلى، وأجلى بلاغة منه وأحلى، شعر الشيخ أمين أفندي الزيْله وي، فهو ـ ورب الشعْرَى ـ من نهر مجرة البلاغة بعد المرور عليها مرتوٍ، . . . ولولا ضيق الوقت لشرحت صدر هذه الأوراق، مما رقّ من قوافيها الشريفة وراق، وما تقدم من شعره يشهد بصدق ادعائي جلالته، فليكتف به من لا علة في أدبه)[2].

ترك مجموعاً شعرياً كان كثيراً ما يُحيل عليه في (طبقاته). ونحن وإن كنّا نرجح أن هذا الديوان الذي نقدمه باسمه محققاً اليوم، يضم معظم أشعاره من ذلك المجموع، فإننا نعتقد أنه لم يستوعب كل أشعاره. ولعلّ في عدم احتوائه لما أحالنا عليه في (طبقاته) من جهة، والزيادة التي استطعنا إضافتها على أصل المخطوط من جهة أخرى، ما يؤيد رأينا فيما ذهبنا إليه. هذا وقد سمّاه صاحب إيضاح المكنون بـ(ديوان الزيله وي)، إلاّ أنه قال: إنه تركي[3]، ولعله كان للزللي ديوانان، أحدهما بالعربية والآخر بالتركية، فإنه كان يحسن اللغة التركية إحسانه للعربية، وذلك لأصله التركي، ولكون اللغة التركية هي لغة الحكم ولغة السلطان الغالبة في عصره على ألسنة الناس.

قال في الورقة (٥٨) من (طبقاته)، في آخر ترجمة الشيخ محمد أفندي

---

(١) شهي النغم ص ١٤٥.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٧

(٣) إيضاح المكنون ١: ٤٩١.

مفتي الخادم المتوفى سنة ١١٧٦هـ: وقد رثاه محمد فهيم الشاعر الشهير بنعلبند زاده، بقصيدة تركية بيت تاريخها:

آه أيدوب كوكده ملكلم تيدلر تاريخي خادمي

قـطب دنـيـا عـزم عـقبـا إيـلدي

ولم يشر كحالة إلى ديوانه ولا إلى شاعريته، بل اكتفى بأن قال عنـه: عـالم أديب مؤرِّخ من آثـاره (طبقـات الفقهـاء والعبـاد والزهاد)... إلخ. وقال عنه الزركلي: أديب له نـظم كثير حسن، واشتغال بالتاريخ، من أهل المدينة، صنف كتاب (طبقات الفقهاء العباد والزهاد). وكأنهما على هذا لم يريَا له مجموعاً أو ديوانـاً في العربية أو التركية.

وكذلك لم يتعرض لذكر ديوانه صاحب (حلية البشر)، رغـم أنه امتدح أشعاره وأشاد ببلاغته وأدبه فقال: (ناظم جواهر الكلام، وناثر أزهار البيان بأنامل الأقلام، تقدم في مضمار البلاغة وما تأخر، وذلّل صعاب البراعة بأدبه وما تعذّر، فهو العالم بشعـار الأشعار، والمقتنِص لأبكار الأفكار)[1].

أما المرحوم عبد الرحيم أبو بكر فإنه يذكر الديوان مشيراً من طرف خفيّ إلى أنه لا يحوي جميع شعره، فيقول: (وقد حفظت لنا مكتبة عارف حكمة شيئاً من شعره المخطوط فيما سمي بديوان، وعدد أوراقه لا يزيد على اثنتين وعشرين ورقة متفرقة)[2].

وآية ذلك كله أن الزللي كان عالِماً أديباً فاضلاً، اعترف له

---

(١) حلية البشر ٣: ١١٩٥.

(٢) الشعر الحديث في الحجاز ص ١٣٠.

بذلك معاصروه ومن ترجموا له أو ذكروه قصداً أو عرضاً. أما عن ديوانه فإننا نرجح في ضوء ما تقدم أن له بالفعل ديواناً أو مجموعاً شعرياً كما ذكر هو عن نفسه. وقد بحثت عنه في الفهارس وسألت أحفاده بالمدينة لعلّني أجده عندهم كاملاً، فلم أظفر من ذلك بطائل، فكان لا بدّ ـ والحالة هذه ـ من التغاضي عن النقص الموجود في نسخة مكتبة عارف حكمة إذا أُريد لشعره أن ينشر ويرى النور، وقد ضممتُ إلى هذه النسخة ما أمكنني العثور عليه من شعره في مواطن أخرى.

وصف النسخـــــة:

تقع في ثلاث وأربعين صفحة تضم في شكل متواصل سبعاً وسبعين مقطوعة وتسع عشرة قصيدة، أقصر مقطوعة فيها مكونة من بيتين، وأطول قصيدة منها مكونة من تسعة وستين بيتاً.

وهذه الصفحات تشغل حوالي ربع النسخة وباقي الأوراق بيضاء ليس فيها كلمة واحدة، كان منوياً ـ فيما يبدو ـ إكمال المجموعة فيها.

ونجد القصيدتين (٥٩، ٦٠) في الورقة (١٩) مكتوبتين بخط مغاير، منتهيتين بما يلي:

هاتان القصيدتان[١] نقلتهما من جريدة الحج بتاريخ ذي القعدة ١٣٧٠ هـ ـ العدد الخامس، فإنه قد ترجم لهذا الشاعر ترجمة حافلة

(١) في الأصل: هذه القصيدتين.

فيها، وأسأل (الله)[1] أن ييسِّر لي نسخة كاملة أُكمل بها هذه النسخة، وما ذلك عليه بعزيز.

١٠ ذي القعدة ١٣٧٠ - إبراهيم حمدي.

ولا يوجد على صفحة العنوان ما يدل على دخول النسخة في ملكية أحد، وإنما عليها العنوان التالي: (ديوان الزلـلي)، ثم عدد الصفحات المكتوبة، ثم ختم مكتبة عارف حكمة وهذا نصه: مما وقفه العبد الفقير إلى ربه الغني أحمد عارف حكمة الله بن عصمة الله الحسيني، في مدينة الرسول الكريم، عليه وعلى آله الصلاة والتسليم، بشرط أن لا يخرج عن خزانته، والمؤمن محمول على أمانته ١٢٦٦ هـ.

كما كتب عليه بعده: (من كتب الدواوين) وثلاثة أرقام مكتبية مختلفة، أما عن نوع الخط الذي كتبت به النسخة فهو خط نسخ واضح، لم يلتزم فيه صاحبه في الصفحات بعدد السطور ومقاسها.

عملي فيهـــا:

١ - حققت النصوص ووضعتها في صورتها المؤدية للمعنى، والتي اعتقدت أنها مراد صاحبها، وما أصلحته منها نبهت إلى أصله في الهامش، ظناً منّي بأنه من تحريف الناسخ.
٢ - شرحت الكلمات التي رأيت ضرورة لشرحها.
٣ - ترجمت لبعض الأعلام الذين وردت أسماؤهم في مقدمة القصائد أو المقطوعات.
٤ - رقّمت القصائد والمقطوعات وأوردت كلًّا منها على حدة بعد أن

(١) سقطت من الأصل.

كانت في الأصل متتالية من غير ترقيم.

٥ ـ أضفت إلى الديوان أربع مقطوعات وخمس قصائد للشاعر لم تذكرها نسخة عارف حكمة، بعضها من (شهيّ النغم) وبعضها من ديوان البوسنوي المخطوط، والآخر من (حلية البشر)، كما أثبتت ما له علاقة بذلك من شعر البوسنوي.

٦ ـ وضعت فهرساً للمحتوى ثم ثبتاً بالمراجع المستعملة في التحقيق.

إيماضة:

كنت أُوثر أن أترك القارىء يتعامل مع شعر الزلّلي مباشرة دون أي تدخّل مني، حتى لا أفسد عليه متعته ولا أقتحم زوايا عقله وشرفات وجدانه، ولكنني مع ذلك رأيت أن لا مفر من تقديم كلمة موجزة تحدد بعض المعالم وترسم بعض الشيات دون أن تُوغِل في الدواخل أو تغوص في الأعماق، وسأعود لمعالجة ذلك في دراسة خاصة إن شاء الله، إذ الغرض الأساسي الآن هو تحقيق الديوان ونشره وتقديمه إلى القرّاء في صورة تقربه منهم وتقربهم منه.

ونحن إذا عرضنا الديوان على أغراض الشعر التقليدية وجدناه لا يتجاوز ثلاثة أغراض هي: المدح والوصف والغزل، وفي ثنايا ذلك ترِد بعض الأغراض الأخرى كالعتاب والاعتذار.

أما ممدوحوه فقد كانوا إما من العلماء كالشيخ عارف حكمة والشيخ الشِّرواني. وإما من الأمراء والحكام كإبراهيم باشا ووالده محمد علي باشا. مدح العلماء بالعلم والتحقيق في البحث والقدرة على حل المعضلات وحدّة الذهن وتوقّد القريحة، وبالبلاغة والفصاحة والتفرّد ونباهة الشأن. ومدح الحكام بالسماحة والجود والسؤدد،

وبالشجاعة والقوة وشدة العزيمة، والمضاء والنصرة على الأعداء، وغير ذلك من الصفات التي يدّعي تفرّد ممدوحه بها وعدم مشاركة غيره له فيها، على عادة شعراء المدح في المبالغة والادّعاء.

وهو في أثناء مدحه يصف القتال وأدواته من سيوف ورماح وبنادق، ويتحدث عن نفسه فيصف عُسره ويُسره وحلّه وترحاله إلى غير ذلك. وكما تناثر الوصف في ثنايا مدائحه تخلل أيضاً غزلياته.

وقد سار شعره الغزلي في ثلاثة اتجاهات هي:

أ ـ غزل صناعي جاء به مقدمة لقصيدة المدح، وهو في هذا لا يصدر عن تجربة ولا يعبّر عن واقع، وإنما هو يقلد الأقدمين والأقدمين جدّاً، في أفكاره وصوره وعباراته وطريقة تناوله.

ب ـ غزل مستقل بذاته في مقطوعات مكتملة أو مقتطعة من قصيدة كانت كاملة ثم ضاعت ولم يبق منها إلا تلك الأبيات، وإما في قصائد كاملة بالفعل، وكان في هذا الغزل المستقل يجري في نسقين، غزل حسي يتعلق بالجسد وما يتصل به، وغزل معنوي يتجه إلى الحديث عن المشاعر ووصف حالات النفس تجاه المرأة، ففي المجال الأول تحدث عن جمال الوجه ورشاقة القوام وسواد العين وامتداد الجيد ولباقة الالتفاتة وعذوبة اللَّمى وبياض الأسنان إلى غير ذلك من أجزاء الجسم، ومن أمثلته الرائية التي مطلعها:

فُقْتَ بدرَ السما عُلاً واستنارة
وكمالاً وبهجةً واستداره

وفي المجال الثاني تحدّث عن عنائه ودموعه وضعف فؤاده وعن

شوقه وأرقه، وعن ظلم الحبيب وتجنّيه وجوره وهجره، وبث رجاءاته لاسترضائه ونوال عطفه وحنانه، إلى غير ذلك مما له صلة بخلجات النفس وخفقات القلب، ونبضات الوجدان، ومن خير ما يمثل هذا المنحى لديه نونيته التي منها:

كيف أسلوه وقلبي
نحوه حنّ وأنّا
واصطباري فرّ من بيـ
ـن يَدِي، والعقلُ جُنّا
يا حبيبي، هات قل لي
أيّ ذنبٍ كان منّا
ما الذي أغراك حتى
مِلْتَ عمّا قد عهدنا

جـ - وهناك نوع ثالث من الغزل جاء على لسان الشاعر، كان شعراء عصره ينظمون فيه ويتعاطونه لمجرد إظهار البراعة الشعرية فيما نحسب، إذ كان الشاعر لديهم لا يعدّ شاعراً إلا إذا نظم في جميع الأغراض الشعرية باقتدار. أو بغية تحقيق غرض بديعي من تورية وجناس ونحوهما، كما هم ينظمون فيه أحياناً بدافع من الدعابة والمزاح، ذٰلكم هو الغزل بالمذكر، ولا نستطيع أن نتصور أي تفسير آخر لهذه الظاهرة في شعر الزللي وأمثاله من العلماء الأفاضل الذين ورد مثل هذا الشعر على ألسنتهم رواية أو إنشاء، وكثيراً ما كانت موضوعاته تقترح على الشاعر اقتراحاً لتحقيق واحد أو أكثر من الأهداف السابقة، وبخاصة هدف المحسن البديعي، فقد كان البديع من أهم أهدافهم في تلك

العصور، وفي ديوان الزلي تجد منه أنواعاً عديدة، منها: الاقتباس في المقطوعة (٨٤، ٨٥)، والتضمين (٢٣، ٨٩، ٩٠، ٩١)، والتورية (٦٨، ٧٢، ٧٣)، الجناس (٨٢، ٨٣، ٨٦). وكثُر فيه أيضاً التشطير والتخميس والتطريز والتشجير، ونجده كذلك أحياناً بدافع من الرغبة في إظهار البراعة يعمد إلى معارضة من سبقه من الشعراء، وذلك كما فعل في موشح الصفدي.

وقد يصادفنا في شعره ما يوهم بإغراقه في اللذة والدعوة إليها كما في قصيدته الأخيرة الهمزية، وما نظن أن الأمر كذلك، إذ لو كان الأمر كذلك لما كانت له هذه المنزلة بين علماء عصره، ولما كان لإمامته في المسجد النبوي وخطابته فيه مكان، ولكنها شطحات شاعر يسعى وراء المكانة الشعرية، ويحاول أن يقال عنه: إنه يضاهي في شعره أبا تمام والبحتري وابن الرومي وأبا نواس، ولذلك نراه عندما يفتخر بشعره في بعض قصائده يدّعي له أنه فاق شعر هؤلاء العمالقة من شعراء دولة بني العباس، وما هو في الحقيقة بمتفوق عليهم، وما كان ينبغي أن تدفعه هذه الرغبة في المحاكاة إلى أن يخرج عن وقاره أو يفرط في القيم التي يؤمن بها، ويدافع عنها بوصفه عالماً جليلاً وواعظاً يخطب في الناس ويؤمّهم في مسجد رسول الله ﷺ. غفر الله لنا وله، وتغشانا جميعاً برحماته ـ آمين.

بقي أن نطرح في آخر هذا التقديم سؤالاً صغيراً كان لا بدّ من طرحه في محاولة لتأطير عملية هذا التحقيق وبيان أهدافه وغاياته، وهو: ما الدافع وراء هذا العمل؟.

في اعتقادي أن أي دراسة تقوم حول شعر شعرائنا في هذه الفترة أو تحقيقه تعتبر إضافة جيدة في بابها تكشف عن كثير من الجوانب المجهولة في تاريخنا الأدبي الذي نزعم أنه لم يظفر بما يليق به من الاهتمام والعناية، وأن نصوصه ظلت حبيسة بطون الكتب ورفوف الخزائن، حتى كاد يستقر في الأذهان أن جذوة الشعر في مطلع القرن الثالث عشر الهجري قد خَبَتْ وأن ريحه قد ركدت كل الركود، فلا يوجد منه ما يستحق الذكر أو يلفت نظر الباحثين الذين أرّخوا لأدب تلك الفترة[1]. وما كان الأمر في حقيقته كذلك، بل كان في المدينة ومكة في تلك الأثناء مجموعة من الشعراء الذين كان لهم فنّهم وأدبهم الذي استحق أن يخصّه الداغستاني بكتاب سمّاه (تحفة الدهر) أو (الدرّة الثمينة)، وجعل البيطار ينتخب مجموعة منهم أورد أسماءهم ضمن من ترجم لهم في كتابه (حلية البشر)، لا يقل عددهم عن خمسة عشر شاعراً، كما أورد نماذج كثيرة من أشعارهم، وكان لبعضهم دواوين أو ما يصلح أن يكوّن دواوين لا تزال مخطوطة، تؤكد لهذه البلاد وجوداً أدبياً «لا مجال لتجاهله لمن يريد أن يؤرِّخ لمسار الحركة الشعرية»[2] فيها، والدارس لشعر هؤلاء الشعراء - ومنهم الزللي - لا يمكنه بحال إغفال هذا الشعر في تأريخه للأدب العربي في هذه الفترة، كما فعل صاحب كتاب الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ولا ينبغي أن يعتبر إغفاله لذلك دليلاً على قصور هذا الشعر، كما يزعم محمد سعيد عبد المقصود[3]، بل إن

---

(١) انظر (وحي الصحراء) - مقدمة محمد سعيد عبد المقصود ص ٦١ ط ٢ سنة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م طبعة تهامة - جدة - السعودية.

(٢) الشعر الحديث في الحجاز ص ١٣٨.

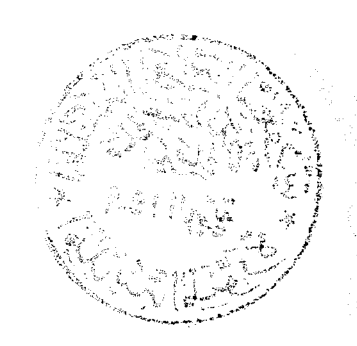
(٣) وحي الصحراء - المقدمة - ص ٦١.

ذلك في اعتقادنا راجع لتقصيره أو لعدم توافر المادة لديه، وإلا فإن شعرهم لم يكن بأقل مستوى من شعراء عصرهم أمثال: حسن العطار، وحسن قويدر، والسيد علي الدرويش من مصر، الذين ظفروا باهتمام الباحثين واعتبروهم ممثلين لمرحلة البعث التي سبقت النهضة في مصر[1].

وإني لأشكر الله الذي هيّأ لي الفرصة لتحقيق هذا الديوان ومكنني من الحصول على مخطوطات دواوين بعض الشعراء الآخرين من شعراء هذه البلاد المباركة وسأعمل على تحقيقها وإخراجها في وقتٍ تالٍ إن شاء الله. والله وليّ التوفيق..

الدكتور محمد العيد الخطراوي

(١) في الأدب الحديث ـ عمر الدسوقي ١: ٤٦ ـ ٥١ الطبعة السابعة.



ديوان

محمد أمين الزللي

من شعراء المدينة في القرن الثالث عشر

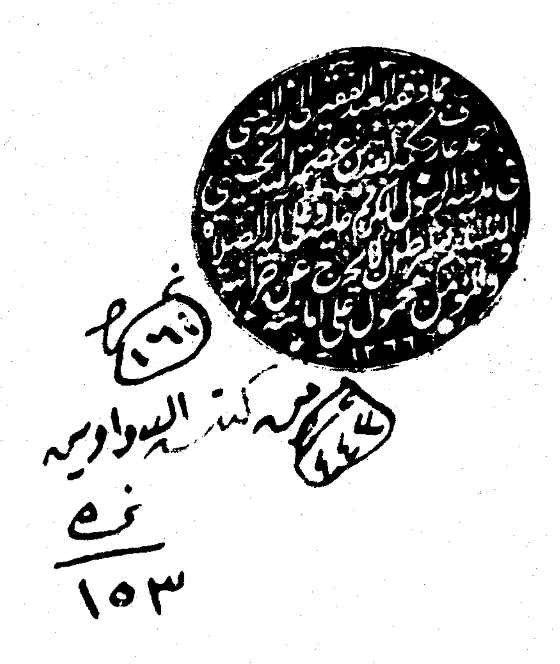
تحقيق وتقديم

الدكتور محمد العيد الخطراوي



الصورة رقم (١) من المخطوطة

الصورة الأخيرة من المخطوطة وفيها نهاية الديوان



صورة من المخطوطة تبين العنوان وختم مكتبة عارف حكمة



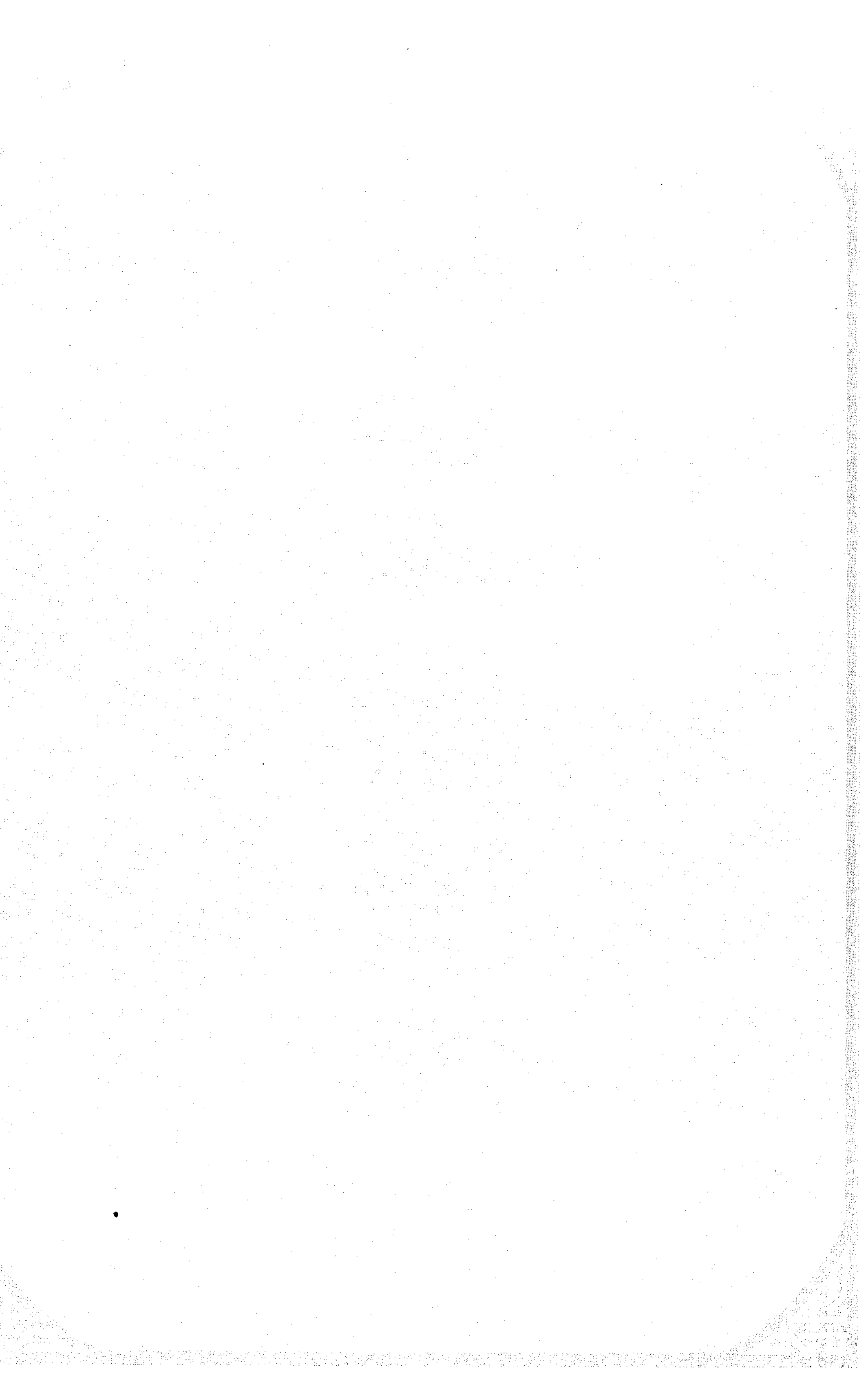
بسم الله الرحمن الرحيم

مَدْخَل[1]

ما ألطف قول القائل:

عزمت على رقيا محاسن وجهه
بآيات أنوار الضحى حين أقبلا
ولما بدا يفتر عن درٍّ ثغره
بدأت ببسم الله في النظم أولا

(١) واضح أن البيتين ليسا للشاعر، ولذا اخترنا لهما هذا العنوان.



- ١ -

لكاتبه الفقير إليه سبحانه محمد الزيله وي المدني:

من يَعرِض الروح بسوق الهوى
يربح ذلًّا مُكسباً للخسارْ
فما سوى المعشوق من رائج
والعاشقُ المغبون يَلقى البوارْ

- ٢ -

وله:

يا مُرْخصاً سَوْم غالي الروح إذ عُرضت
عليه.! ما هكذا يُستعرض الجلَبُ
فكم تسعّر في الأحشاء نار جوى
ولست لي ناظراً، والقلب مُحتسب

- ٣ -

ولــــه:

وبي بــدرُ تـمٍّ صــاد طــائــر مـهـجـتي
بــطرفٍ كعـين الــريم أوطف[١] أحــور

وأمــسيــت رقّــاً فــي هــواه، ولا أرى
طـريقـاً إلى عتقي، فهـل من مـدبِّــر؟.

- ٤ -

وله مخاطباً المرحوم أحمد شاكر أفندي[٢] بالروم سنة ١٢٢٠ هـ.

أيهــا المــولى الــذي راحــتُــه
أخجلت من جــودهــا كفَّ الــسحــابــه

لــست أبـغـي الـعـتـق مـن رقِّـي لـكـمْ
فــلهــذا لم أجيء وقــت الــكـتــابــه

- ٥ -

ولــــه:

أمــن المــروءة أن أمــوت بــعــلّتي
ولــديــك طــبٌّ لـلحـــشــاشــة نــافــع

وأبــيــت في نــار الجــفــاء مــعــذَّبــاً
والــغــيرُ فـي جــنّــات وصـــلك راتــع

(١) الأوطف: المسبغ شعر الأهداب طويله. وجرّ الممنـوع من الصرف بالكسرة للضرورة.
(٢) لم أعثر على ترجمته.

- ٦ -

ولـــه:

غــاب إلـفي فـصـرت أبـكـي بـشـعـر
رَقَّ مـعـنـاه، لا بِـدَمـعٍ مُـراق
أنــا والـوُرْق فـي الـغـرام سـواء
فـكـلانـا يـنـوح فـي الأوراق[1]
غـير أني خـلـعـت طـوق شـبـابي
وعـلـيهـا طـوق الـشـبـيـبـة بـاق

- ٧ -

وله مشطرا بيتي الحسن بن حبيب[2]:

(يـا مـعـشـر الـعـشـاق أُوصـيـكـمُ)
حـقـاً، وإني لمـن الـنـاصـحـينْ
والنُّجـحُ في نصـحي لكـم فـاسمـعـوا
(وصـيّـةَ الـعـاني، حـلـيـف الأنـين)
(لا تـوقـعـوا أنـفـسـكمْ في الهـوى)
فـهـو هـوانٌ، وعـذابٌ مُـهـين
فـامـتـثـلوا الأمـر، وعـنـه انـتـهـوا
(إني لـكـم مـنـه نـذيـر مـبـين)[3]

---

(١) هنا تورية.

(٢) لم أعثر على ترجمته.

(٣) الاقتباس واضح في البيتين المشطرين. وقد نسب صاحب حلية البشر (٣: ١١٩٧، ١١٩٩) الأبيات للشاعر دون أن يشير إلى التشطير.

- ٨ -

وله تشطير بيتي الصفي الحلّي[(١)]:

(يا قرير العيون، رقَّ لعينٍ)
وبْلُها أخجل السحابَ المطيرا
فهي لا تهتدي لطيفك لمّا
(فجّرتْها دموعُها تفجيرا)
(لم تطق بُعْدَكم لتُغمض إلا)
أن تكفكف بالوصل دمعاً غزيرا
فاردد النوم، واكفف الدمع عنها
(لترى منك نَضْرةً وسرورا)

- ٩ -

وله مخمِّساً:

حاولت طيب وصال
منه فزاد مطالي
فمنذ قلّ احتيالي
(رجوت طيف خيال
وكيف لي بهجوع)

---

(١) الصفي الحلي: شاعر مشهور، اسمه عبد العزيز بن سرايا الطائي (٦٧٧ - ٧٥٠ هـ) له عدد من المصنفات منها ديوانه المطبوع. (الأعلام ٤ : ١٨).

وكيف يَهْدا جنوني
ومـا قضيت شؤوني
أم كيف تغفو[1] عيوني
(والذاريات جفوني
والمرسلات دموعي)

- ١٠ -

وله مخمّسا أبيات القاضي عياض[2] رحمه الله:

عهدُ الصبابة عندي غير منتكث
عدلت أو ملت بي عن خُلقك الدمث
فعُدْ إليّ فودِّي ليس بالعبث
(يا من تحمّل عني غير مكترث
لكنه للضنا والسقم أوصى بي)
لك البقاء فقد أفنى النوى وَمَقي
وصرت صَبّاً نحيلاً دائم الأرق
وأنت أصل البَلا، يا ساحرَ الحدَقِ
(تركتني مستهامَ القلب ذا حُرَق
أخا جوى، بين بلبالٍ وأوصابِ)

(١) في الأصل (تغفى).

(٢) القاضي عياض: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في عصره، وهو عياض بن موسى اليحصبي (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ) من أشهر تصانيفه: (الشفا، بتعريف حقوق المصطفى). (الأعلام ٥: ٩٩).

أبكي بدمع كمزن قطره وكفا
تأسفاً لزمانٍ باللقا سلفا
وكلما جَنَّ ليلي والعذول غفا
(أراقب النجم في جُنح الدجى كلفا
كأنني راصد للنجم، أو صابي)
وحقِّكم إن صبحي بعدكم ظُلَمٌ
وصحتي، منذ غبتم كلها سقَم
وما تلذَّذ منّي بالطعام فم
(ولا رأيت لذيذ النوم بعدكمُ
إلا جَنَى حنظل في الطعم، أو صابٍ)[1]

- ١١ -

ولـــه:

مُذْ مَرّ من أهوى وضعتُ يدي على
صدري، فقالوا: بالإشارة سلَّما
فأجابهم: لمَّا أصاب فؤاده
سهمي، غدا متطلِّباً أثر الدما
ولقد تلطَّف في الجواب، وإنّما
فتّشتُ: هل طار الفؤاد، أو ارتمى؟

---

(١) نلاحظ أن القاضي عياض أورد كلمة (أوصابي) أربع مرات، بمعانٍ مختلفة، فالأولى مكونة من الفعل: (أوصى) والجار والمجرور (بي). والثانية جمع (وصَب). والثالثة مكونة من العطف (أو) والاسم (صابئي) مفرد الصابئة عبدة النجوم. والرابعة مكونة من حرف العطف (أو) و(الصاب) الذي هو المرّ.

- ١٢ -

وله في إسماعيل:

إن حُجِبت كعبةُ مرآه عن
طواف طرفي، ولقيت الردى
في حِجْر إسماعيل يا ليتني
كنت ذبيحاً ما له من فدا

- ١٣ -

وله في اسم خالد معمًّى:

يا كعبةُ، في الحسن أبصارُنا
طافت بها في ليلها والنهار
ما دام طرفي طائفاً عاكفاً
لا طاف في خدِّك آسُ العِذار

- ١٤ -

ولـه:

سباني بسحر اللحظ ظبْيٌ ممانعٌ
نفورٌ، ولكن في فؤاديَ راتع
يصول فيُصمي كلَّ صَبٍّ إذا رنا
بماضي لحاظٍ، للسيوف مُضارع

دهشت، وفي أمري تحيّرت عِندما
تبدّى، ودرُّ الثغر كالبرق لامع
يقول: بُدور التِّم من دون بهجتي
وإن عارضوه قال: مه، لا تدافعوا
دليل جمالي مثل لحظي قاطع
وبرهان حسني في جبينيَ ساطع
رُضابيَ خمر في كؤوس شقائق
ووجهيَ بدر في سما الحسن طالع
ولولا سهام الهدب يحمين قامتي
لغنّت عليها المطربات السواجع
يُرَى كلُّ طرفٍ في محيّاي عاكفاً[1]
ولا بدْع أني للمحاسن جامع
شغفت جميع الخلق حبّاً فكلهمْ
عبيدي، فهل لي في الملاح مُنازع؟

- ١٥ -

وله مشطّراً:

(أرى آثارهم فأذوب شوقاً)
بنيران تأجّجُ في ضلوعي
وأسلَبُ في مواطنهم شعوري
(وأسكُب في مواطئهم دموعي)

---

(١) في الأصل (عاكف).

(وأسـأل مـن بـفـرقـتـهـم رمـاني)
يُشعِّب[1] مـا بـقلبي مـن صـدوع
ويـلـحـقـني بـركـبـهـمُ وإلا
(يمُـنُّ عـليّ مـنـهـمْ بـالـرجـوع)

- ١٦ -

وله تخميس بين المصراعين[2]:

(أرى آثـارهـم فـأذوب شـوقـاً)
وهـمْ قـد ألـبـسـوني الحـزن طـوقـاً
وسـاقـوا القلب نحـو الضـرِّ سـوقـاً
فـمـن لي أن أذوق الـنـوم ذوقـاً
(وأسـكـب في مـواطئـهـم دمـوعـي)
(وأسـأل مـن بـفـرقـتـهـم رمـاني)
يُـسـكِّـن مـا عـراني من جُـنـان[3]
ويُـفـرغ الاصـطبـارَ عـلى جَـنـاني
وقـبـل زهـاق روحـي وامـتـحـاني
(يمُـنُّ عـليّ مـنـهـم بـالـرجـوع)

---

(١) يشعّب: من قولهم: شعّب الإناء ونحوه، أي أصلح صدعه.
(٢) في الأصل (المصرعين)، والمقصود أنه يبدأ في المخمّس بالمصراع الأول من بيت غيره، وينهيه بالمصراع الثاني، وهو على غير الشائع من التخميس.
(٣) جنان: يبدو أنها بضم الجيم، وهي بالعاميّة: الجنون. ومن معانيها بالفتح في الفصيح: شدة الظلمة، أما في البيت الذي بعده فهي بالفتح، بمعنى: القلب.

- ١٧ -

وله مخمِّساً:

يا قلب، لا تشتك[1] اهتضاماً

لحادثٍ أوهن العظاما

وإن يزد كربُك اضطراماً

(اصبر، ولا تضطرب إذا ما

أظلّك الهائل المهيب)

وناده: يا لَطِيف، لطفاً.!

يكُفّ عنك العنا، وتُكفى

ولا تسل غيره فتُجفَى

(مدبِّر الكون ليس يَخفى

عليه شيء، ولا يغيب)

- ١٨ -

وله تشطير أبيات بدر الدين الحسن بن حبيب:

عرِّج على أيمن الجرعاء يا حادي

واعطف على ربْع ذاك الشادن الشادي

وفي مسيرك قف نحو العقيق، ومل

وانزل بوادي النقا، أفديه من واد

(١) في الأصل (لا تشتكي).

وإن مررت ببانات اللوى سَحَراً
نادِ[1] بشجوٍ، وحرِّك ساكن النادي

وحيِّه، وإذا شارفت منزله
فانشد هنالك قلباً حزنه بادٍ

منازلٌ كم قطعنا في جوانبها
حبْلَ العنا، ووصلنا كلّ ميّاد

فيا سقاها وحيّاها الحيا، ورعى
وقتاً يجود بإسعاف وإسعاد

بالله يا عيشنا الماضي المفارق، عُدْ،
عسى إذا عدت يُطفَا حرُّ أكباد

وأنت يا باخلاً بالوصل، جُدْ كرما
واسمح لنا بتلاقٍ، أو بميعاد

- ١٩ -

وله مضمّناً:

ولّما رأيت الغصن في الروض مائساً
وورقاءه بالسجع للسرِّ تُظهر

تذكّرت ممشاها ولِلْحَلْي رنّةٌ
على قدِّها، (والشيء بالشيء يُذكر)

(١) في الأصل: (نادي).

- ٢٠ -

وله مشطّراً:

(إن العيون السود أقوى مضربا)
في القلب من فتكات كل سنان
ولواحظ الأتراك أفتك في الحشا
(من كل هنديٍّ وكلّ يماني)
(فضل العيون على السيوف لأنها)
سُقيت بماء الغُنج سقياً ثاني(١)
والسيف يجرح إن يُسلَّ، وهذه
(جرحت ولم تبرح من الأجفان)

- ٢١ -

وله مخمِّساً:

واطُولَ سقميَ.! واحزني.! وواكمدي.!
وواعناء فؤادي.! واضنا جسدي.!
كيف اصطباري وقد حَلّت عرى جلَدي
(هيفاءُ لو خطرتْ في جفن ذي رمد
لمشْيِها ما استحسَّ الجفن بالألم)؟

---

(١) ثاني: كذا في الأصل، والصواب (ثانياً). ففيه مخالفة نحوية.

تخشى الأسودُ الضواري بأس سطوتها
وفوق فتك المواضي فتك نظرتها
لكنّها معْ تجنِّيها وقسوتها
(خفيفة الروح، لو رامت بخفّتها
مشياً على الماء، لم تبتلّ في القدم)

- ٢٢ -

وله مشطرا بيتي ابن ماكولا[1]:

(قوِّض خيامك عن أرض تضام بها)
وإن يكن لك في ساحاتها أرب
وصاحبِ العزَّ إن العزَّ مغتنَم
(وجانب الذلَّ، إن الذلّ مجتنَب)
(وارحل إذا كان في الأوطان منقصة)
تحوي كمالاً، به تسمو لك الرتب
ونقِّل النفس عن ربع أقمتَ به
(فالمندلُ الرطبُ في أوطانه حطب)

(١) ابن ماكولا، هو هبة الله بن علي بن جعفر، أبو القاسم بن ماكولا من أحفاد أبي دلف العجلي (٣٦٥ ـ ٤٣٠هـ)، كان وزيراً لجلال الدولة، عارفاً بالشعر، وهو والد المؤرخ الحافظ علي بن هبة الله، الشهير بابن ماكولا أيضاً. الأعلام ٨: ٧٣.

- ٢٣ -

وله مضمِّناً:

تغرّب، تقرّب للمعالي، ولا تُقمْ
على الذلّ في أرض بها الخطب فادح
وإن جانبٌ أعياك فالحقْ بجانب
(ففي الأرض للحر الكريم منادح)

- ٢٤ -

وله مشطّراً:

(قَلِقِل[١] ركابك في الفلا)
أو فاقتحمْ لُججَ البحورِ
واغدُ[٢] لتحصيل الغنى
(ودع الغواني للخدور)
(فمحالِفُوا أوطانهمْ)
وإن استطالوا، في قصور
وهُمُ وإن وهِمُوا الحيا
:(أمثالُ سكّان القبورِ)

---

(١) قلقل: حرّك ونقّل.
(٢) في الأصل: (واغدو).

(لـولا التنقُّـل مـا ارتقـى)
وغـدا الهـلال من البـدور
وبـالانـتقـال لـقـد سمـتْ
(دُررُ البحـور إلى النحور)[1]

- ٢٥ -

وله مادحاً جناب حضرة فخر المـوالي، أفندينـا السيد أحمـد عارف[2] بيك عصمة بيك زاده[3]:

ديـارَ الـصِّبـا حـيّـاك غـادٍ ورائـح
يـبـاكـر أكـنـاف الحـمـى ويـرواح
وجـادك إن ضـنَّ الحيـا بـعِـهـاده[4]
من الجفن هـطّال على الخـدّ سـائـح
إذا انهلّ تخـضـرّ الـوهـادُ بـوقـعـه
وتخضـلّ هـاتيـك الـربى والصحـاصـح

---

(١) وبعد هذا التشطير تكرر في المخطوط تخميس شعر القاضي عياض، وقد نبّه كاتبه إلى ذلك.
(٢) أحمد عارف: هو أحمد عارف حكمة بن إبـراهيم عصـمـة بـن إسماعيل رائف بـاشـا، مستعـرب تـركي، (١٢٠٠ - ١٢٧٥ هـ)، تـولى قضـاء القـدس سنة ١٢٣١ هـ وقضاء مـصر سنة ١٢٣٦ هـ وقضاء المدينة سنة ١٢٣٨ هـ ثم مشيخة الإسلام في الآستانة سنة ١٢٦٢ هـ له عدة مؤلفات، وتعدّ المكتبة المعروفة باسمه في المدينة المنورة من أعظم مآثره رحمه الله. انظر (شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم) للألوسي، بتحقيقنا.
(٣) انظر القصيدة كاملة في: (شهيّ النعم) ص ١١٩.
(٤) العهاد: مطر أول السنة، ومكان نزوله، ومثله العهادة.

ولا زال معطارُ النسيم إذا سرى
يفاوح مغناك الشذى وينافح
مغاني مسرّاتٍ بزاهرِ روضها
طيور التهاني باغماتٌ صوادح
قضيتُ بها شطراً من العمر لاهياً
ولم يُثنني عمّا أُحاول ناصح
ولمّا رأيت الرشدَ قد لاح فجره
تيقّنتُ أن الغيَّ فيه فضائح[1]
وأن انهماكي في الهوى غيرُ لائقٍ
وداعي الفنا نحوي مُماسٍ مُصابح
ولو أنّني استدركتُ ما فات وانقضى
لما طوّحتْ بي عن حماها الطوائح
فأعظمْ بها داراً، وأكرِمْ بناسها
أناساً لهم كفُّ المعالي تصافح.!
فليس يسامي الدهرَ ساميَ مجدهمْ
سوى ماجدٍ بالجاه والمال سامح
كقطب سماء المجد (أحمد عارف)
به يَهتدي للرشد سارٍ وسارح
أجلّ قضاة المسلمين، أدلّهمْ
إلى الحق، إن يجنح إلى الزيغ جانح
محقِّق أبحاث العلوم بكشفه
غوامضَ ما لاحت لهنّ لوائح

(١) في شهي النغم: (قبائح).

جـلا صـدأ الإشكـال صيقـلُ فهمِـه
فـما مـشكـلٌ إلا بـدا وهـو واضـح

وأحـرز قصب السبق في كـل غـايـة
فتـاليـه في يـوم الـرهـان مُـلاوح[1]

إذا مـا ادلهمّ الخطبُ في معضـل بـدا
لـه زنْـد فـكـرٍ في المـهـمـات قـادح

فكم حـلَّ من رمـزٍ، وأظهـر مضمـراً
من الكنـز، لم يلمحـه بـالفكـر لامـح.!

وكم بحـديـد الـذهن في حـدِّ حـادث
أبـان فلـولاً لم تُـبنهـا الـصفـائـح.!

فـأنَّى يـوازَى أو يـوازَن فـضـلُه.؟
ومـقـدارُه في كـفّـة الـفـضـل راجـح

وأنَّى يـدانَى في عـلا مجـدِه وقـد
نمتْـه إلى العـليـاء صِيـدٌ جـحـاجـح

كـرامٌ فِـخـامٌ طـيبـون، وجـوهُـهـمْ
وآراؤهـمْ في الـداجيـات مـصـابـح

يـرَوْن اكتسـابَ الحمـدِ ضـربـةَ لازب
عـليهـمْ، ومن يـبـغِ الثنـاء فـرائـح

فكم في عكـاظِ المـكـرمـات محـامـدٌ
لهـم تُـليـت[2] آيـاتُهـا، وممـادح

ومن كـان هـذا الأصـلُ منبتَ فـرْعـه
فـللدهـر في سـامـي عـلاه مـدائـح

---

(١) ملاوح: أي تفصل بينهما مسافة فلا ينظر إليه إلا من بعيد.

(٢) في شهي النغم: (نُـميت).

فيا أيها البحر الخضمُّ الذي به
سفائن آمالي جوارٍ سوابح
لسدّتك العلياءِ أهديتُ غادةً
عَروباً عليها للجمال ملامح
فهيِّءْ لها بيتَ القبول تكرُّماً
وإن ظهر التقصيرُ منها فسامحوا
فلا زلتَ في عزٍّ يدوم ورفعةٍ
وكلٌّ إلى جدوى أياديك طامح
إلى بابك السامي تسير مدائح
ومن سيبك الهامي تسرُّ منائح
وأنت لأرباب الإجازة خاتم
ونظمي لأبواب الإجادة فاتح

- ٢٦ -

وله مادحاً حضرة المولى المذكور، ضاعف الله له الأجور:

مليحٌ حكمُه نصَفٌ
بهاهُ فوق ما نَصِف[١]
بأفق جبينه قمَرٌ
منيرٌ، ليس ينكسف
وفي محراب حاجبه
مريضُ الجفن معتكف

(١) في شهيّ النغم: (ما أصف).

ووَرْدُ خدوده بالطرْ
ف، لا بالكفِّ يُقتطف
ومن ياقوتِ مبسمه
لجوهر ثغره صَدَف
وخَمرةُ ريقه دبّت
بقدٍّ زانَه الهيَفُ
فما تلقاه إلا مِثْ
لَ غصن البان ينعطف
فدع يا عاذلي عذَلي
فما لي عنه مُنصرَف
فصبري عنه مختلف
ووجدي فيه مؤتلف
وإنِّي عاشق دنِف
براه أساه والأسف
وقلبي هائم كلِف
ببدرٍ ما به كلَف
يعذِّبني، ويَعذُب لي
عذابي فيه، والتلف
وجَورُ الحِبِّ عند الصَّبِّ
عدلٌ ما به جنَف
فيا مَنْ مُهجتي تقفو
هواه، وعنه لا تقِف
متى تدنو فيَعصيَني
ضنىً بالجِسم مكتنِف.؟

متى بنمير قُربِك يَر
توي من شفّه اللّهَف.؟
متى يعتاد أجفاني[1]
كرىً عنهنّ منصرِف.؟
متى تُمحَى بوصلك من
أساطير الجفا صُحُف.؟
فطيبُ لقاك يكفيني
وحسبي ذلك الشّرف
كما يكفي بني الحاجا
ت مولىً جودُه يكِف
سليلُ المجد (أحمد عا
رفُ) بالعُرفِ يُعتَرَف[2]
إمامُ الفضل مَنْ كلُّ الأ
فاضلِ خُلْقه يقِفوا[3]
بليغٌ، دُرّ حكمته
بآذان العلى شنَف[4]
فريدُ العصر مَنْ عن مصْ
رَ قد رُفعتْ له سُجُف

(١) في الأصل: (إجفالي)، والتصحيح من شهي النغم.
(٢) هذا البيت جاء في شهيّ النغم بعد تاليه هنا.
(٣) يقِفوا: يقصد: (يقْفوا).
(٤) الشنف: (بفتح الشين وسكون النون، وقد حرّكه هنا للضرورة): القرط، وقد يخصّص الشنف بما يعلق في أعلى الأُذن، والقرط بما يعلّق في أسفلها. جمعه: شنوف، وأشناف.

تـولّاهـا عـلى حـكْـم الْـ

ـقـضـا بـالـعـجـز معـتـرِف

فـأبـدى الحقَّ حقّـاً، والأ

بـاطـلُ عـنـه تـنـحـرف

وأصبـح من مـعـين العـدْ

ل بـالـراحـات يـغـتـرف

وكـلٌّ من مُـكـرَّر جُـو[1]

ده يـرْوَى ويـرتـشـف

وفـرْط مـهـابـةٍ كـم مـن

عـنـيـدٍ مـنـه يـرتجف.!

وكـم شِـيـبٍ وشـبَّـان

بـه استكفوا العَنا، فكُفُوا.!

وكـم سـارت تحـفُّ بـطا

لـبي مـعـروفـه تُحَف.!

فـما هـو غـير بحر للمكـا

رِم مـا لـه طـرَف[2]

وكـم في أرض مصـرٍ مِـنْـ

ـه آثـارٌ.! وكم طُـرَف[3].!

فـهـا هيَ بـعـد مـدّتـه

عـلى عَـلْـيـاه تـلـتـهـف

---

(١) في شهي النغم: (وكل من درّ جوده.. إلخ) وقد صوبناها هناك: (وكلّ من معاني جوده.. إلخ).

(٢) في شهي النغم: (في المكارم).

(٣) هذا البيت غير موجود في شهي النغم.

وهـــذا دأب آبـــاءٍ

وأجـــدادٍ لـــه شـــرُفـــوا

بسيـــرة عـــدلهـمْ وضُـــحَ الْـ

ـهُدى، وتجـانَـف الجَـنَـف[1]

فـــما مـنهـــمْ فـــتى إلّا

وقـــد فخـــرتْ بـــه السلَف

ومـــولانـــا لهـــمْ خـــلَف

يجـــلّ، وحـــبـــذا الخـــلَف

عـــلى أطم[2] المفـــاخـــر قـــد

عـــلتْ لجـــنـــابـــه غُـــرَفُ

وســـار بـســيـــرة الـــعُـــمـــريْـ

ـــن في الأحكـــام يـتّصـف

فـــهـــل يُـلفَـــى لـــه مِـثْـــل

بهـــذا الـــوصـــف متّـصف.؟

وأُمُّ الـــدهـــر قـــد يئـســـت

وخـــامَـــرَ عـقْـلهـــا الخَـــرَف

وحـــاشـــا أن يـــكـــون لـــه

نـــظيرٌ مَـــعْـــه نـــأتـــلف

(١) الجنف: الميـل والظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿فمن خاف من مُوصٍ جنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه﴾.

(٢) الأطُم (بالضم): الحصن. جمعه آطام وأطوم. والآطام من خصائص (المدينة) في الجاهلية، وبقيت شهرتها بها حتى في الإسلام. يقـول الشاعـر الأموي جبهـاء الأشجعي:

قالت أنيسةُ: دعْ بلادك والتمسْ دارًا بـطيبـة ربّـة الآطـام

سوى النجلِ المطيعِ[1] ومَنْ
لــه بــأصــولــه شَــرَف
فســوف يُـرَى بــأردية الــرِّ
ئــاســة وهــو مــلتــحــف
فــقــد دلّــت مخــايــلُه
عــلى مــا عــنــه ينكــشف
فهــذا الشبــل من ذاك الْـ
ـغضنفــرِ لـيس يخـتـلف
أرانــا الله بــدر كــما
لِـه يُجـلَى بـه الـسَّـدَف
فيــا من لـيس يحصــر بَعْـ
ـضَ آيِ صفــاتـه الصُّحف
إلــيــك زفــفــتُ جــاريــةً
حُــلاهــا الـتِّـيــهُ والـصَّـلَف
عَــروبــاً غــادةً عَــذْرا
ءَ، روضُ جمــالهــا أُنُــف
يحــاكي المـيـمَ مـبسـمُـهـا
وعــادلَ قــدُّهــا ألِــف
فــلا هِـيَ عــانسٌ يَخْشــى
مُــواصـلُهــا، ولا نَصَـف[2]

---

(١) المطيع: هو محمد، ولد الشيخ عارف حكمة، والمطيع لقبه، وكان عارف حكمة يكنى بأبي المطيع.

(٢) النصَف: (بفتح النون والصاد): المرأة الكهلة، والجمع: أنصاف، ونُصُف.

فـقـابـلْهـا بـإقـبـالٍ
وبِـشْـرٍ ظِـلُّه يَـرِف
وعـذراً لـلمـحـبِّ إذا
بـدا لـك نقْص مـا يصف
فـطرْف الـذهـن مـطروفٌ
وبـدرُ البـال مـنـكـسـف
بـقيـتَ منـعّـماً لِـزُهـو
رِ روضِ المـدح تَـقـتـطِف
ومـن صـافي سـلاف المجْـ
ـدِ طـولَ الـدهـر تَـرْتشِف
مـدى الأيـام مـا حِـبٌّ
بِـحـبٍّ ظـلَّ يـأتـلف

- ٢٧ -

وقال مادحاً حضرة المولى المذكور بهذا التخميس أيضاً:

يـا من مكـارمـهمْ لـلأكـرمـين بَهـاً
وقـدرُهـمْ في المعـالي لـيس مـشتبهـا
أنتم (ومن)[١] مـات من أسـلافكم نُبَهـا
(تحـيَى بكـم كـل أرض تنـزلـون بِهـا
كأنكمْ لبقاع الأرض أمطارُ)

(١) في الأصل: (وإن).

كـل المعـالي إليكمْ ألقتِ الـرّسنـا
وعن عيـون العـلى أذهبتُمُ الـوَسَنـا
فـالشمس في الأفق منكم تستعـير سنىً
(وتنـظر العين منكـم منـظراً حسنـا
كأنكم لعيون الناس أبصار)

- ٢٨ -

وقـال مخمّساً بيتي أبي أحمد المظفّر الشيباني الشـافعي الشهرزوري، وقيل: إنها لولده[١]:

ليَ نـفس عـلت وعـزّت مـكـانـاً
تـطلب المجـد والعـلى حيث كـانـا
ولئـن سـامـني الـزمـانُ هـوانـاً
(همّـتي دونها الـسُّـهـا والـزّبـانَى
قد علتْ جهدها، فما تدانى)
كـل يـوم أحـلّ أرضـاً وأظـعـنْ
راويـاً لـلعـلى حـديثـاً مـعـنْـعَـنْ
لا أُرى خـاضعـاً لـدهـرٍ تـفـرْعَـنْ
(فـأنـا مـتـعـبٌ مـعـنّى إلى أن
تتفانى الأيام أو نتفانى)

---

(١) الشهرزوري: هو القاسم بن المظفر، أبو أحمد، الشهرزوري، حاكم إربل، وهو جد بيت الشهرزوري، قضاة الشام والموصل والجزيرة. توفي بالموصل سنة ٤٨٩. (الأعلام ٥: ١٨٥).

- ٢٩ -

وقال مادحاً حضرة المُومَى إليه[١]، أسبغ الله ضافي نعمه عليه، سنة ١٢٣٧ هـ:

ألا أيها المولى الذي سار ذكرُه
مسير النجوم الزُّهر في كل بلدةٍ
ومن قدرُه من فوق كيوانَ[٢] معتلٍ
ورتبتُه في المجد أعظم رتبة
ومن فضلُه كالشمس يجلو غياهباً
من الجهلِ، ظلَّ الخلق منها بحيْرة
مقامك في العليا على كلّ شامخ
علا وتسامَى في علوٍّ ورفعة
ونحن وإن كنّا هضاب معارفٍ
فدون ثبيرٍ في العلا كل هضبة
فدُمْ ساميَ المقدار، ناميَ نعمة
وحامِي[٣] حمى العليا، وحاويَ حكمة
ولا زلت ما مرّ الجديدان حاليا
على رغم أنف الدهر أفخر حلية

---

(١) يقصد الشيخ عارف حكمة.
(٢) كيوان: اسم نجم معروف.
(٣) لم تظهر هنا حركة الإعراب للضرورة.

وقال وهو بالقاهرة على نمط موشح الأديب الصلاح الصفدي[1] الذي مطلعه:

عُق عن الراح كل من عذلا وقم بنا نحو حانها عجلا واشربْ

(قــال):

مـرآك للعـين قـرّة وجَـلا وفي تلاقيك أُمْن من وجِلا يُطلَبْ

كـل إلى وجهـك الجميـل يحن[2]
وحَـينْ مُضنـاك إن بعُـدت يحن[2]
فـارفق بمن في رحى البعـاد طُحن

مرتجف القلب، عظْمه نُخلا كما غدا الجسم منه منتخلا مُذْ حَبْ

إن مـال منـك القـوام واعتـدلا
يـنكّس الـغـصـنُ رأسـه خـجـلا
والبـدر إن لحت مشرقـاً أفـلا[3]

ولو رأى الجيدَ منك ظبْي فَلًا[4] لراح من غيظه ومـا جفلا يغضب

جُمّـع فـيـك الـنـفـارُ والأنس
والمـاء في وجْـنـتـيـك والـقـبس
وفي الجبـين الـضـيـاء والـغـلس

---

(١) الصلاح الصفدي: هو خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، صلاح الدين، (٦٩٦ ـ ٧٦٤ هـ) له زهاء مائتي مصنّف منها: الوافي بالوفيات، ونكت الهميان، ومجموعة شعر. (الأعلام ٢: ٣١٥).

(٢) يحن: الأولى من الحنين، والثانية: (يحين) أي يحلّ وقته.

(٣) أفلا: فعل ماضٍ من الأفول.

(٤) فلا: صحـراء.

فجلّ من أفرغ البهاء مُلًّا[1] عليك، والسحر في مرآك[2] مَلَا من رَبْ

من قاس حالي لَماك بالضَّرَب[3]

أو الثنايا بلؤلؤ رطب

فقل له: قد ذهلت عن حَبَب

على مُدامٍ في كأس ثغر طلا من ذاقه عاف شرب كأس طِلا[4] مُذْهَبْ

وأنت لَوْ جُدت لي برشف لمىً

ما بتُّ أشكو جوىً ولا أَلَما

ولا تلهّفت من ظماي لِما

فمن تروَّى من اللَّمى عَلَلاً لا يشتكي طول دهرِه عِلَلا تنصب

فيا مليك الملاح، يا أملي

تمطل دين اللقا وأنت مَلي

ما حيلتي في هواك.؟ ما عملي.؟

اللهَ اللهَ بي فقد ذهلا عقلي، وأمسيت في الهوى مثلا يُضرب

تقسو دلالاً ولا تكلّمني

وبالجفا والصدود تؤلمني

ما ضرَّ.؟ ما ضرّ لو تسالمني.؟

إن كان ما مَرّ بي عليك حَلا يا من جرى في جفونه كحلا اطرب

ها أنا ذا يا مكحّل الحدَقِ

حيران، سهران، دائم الأرَق

لم يبق من مهجتي سوى رَمَق

---

(١) في الأصل: (البها كملا) والمُلا: جمع مُلاءة.

(٢) في الأصل: (رناك). ومَلا: أصلها ملأ، سهلت همزتها لتجانس (مُلا) قبلها.

(٣) الضرَب: العسل.

(٤) الطلا: الأولى بالفتحة وهي ولد الظبية. والثانية بالكسرة وهي الخمرة.

وخاطري عن هواك ما انتقلا فلا تذب مهجتي بنار قِلَى تلهب

واعـطف وجُدْ مُنعِماً على دِنِف

أشرف مِمّا به على التلف

ومِلْ به نحو روضةٍ أُنُف

غَنَّاء أهدى لها الربيع حلىً زُهْراً[1]، ومن لطف وشيه حُللا مقصب

وفُضّ ختْم الدنان وانتشقِ

طيبَ الشذا من عبيره العبقِ

واستحلِها في غلائل الشّفق

حمراء ينفي نشاطُها الكسلا ما ذاقها ذو خلاعة وسلا مشرب

بكـرٌ لها من زجاجها خـدْر

عقول خطّابها لها مهر

لا الشمس تسمو لها ولا البدر

بها يضيء الوجود إن أفلا إذا تبدّت لناظر أفلا يطرب

فقم بنا مسرعاً لذا الفرحِ

واقدح زنادَ السرور بالقدَح

واكشف عن القلب غمّة التّرح

وزُفّ كاساتها عليّ مُلا ياصاح، واشرب حتى ترى ثملا والْعب

واسكر، ودع لوم من لَحا وصَحا

وعُقّ فيهبا العذول والنُّصحا

مغتبقاً بالهنا ومصطبحا

ولا تبال بقول من عذلا إن جار في نصحه وإن عدلا واطرب

وعاطنيها ما دمت منتعشا

---

(١) في الأصل: (زهر).

حتى تـراني كـالـطير مـرتعـشـا
أحسب رأْدَ الـضـحـى أوانَ عِشـا
وتنظر السهل مقلتي جبـلا   وإن أرَ[1] القطَّ خلته جملاً يُركب[2]

- ٣١ -

وقال في مليح عيسوي يسمى حنّا:

ومـليـح يـقـسـو عـليّ دلالا   قـد دعـوه بـين الـبـريّـة (حـنّـا)
مُـذْ رأى مـدمـعي يـفيض نـجيـعـا   خـضّـب الـكفَّ مـن دمـوعـي وحـنّـا

- ٣٢ -

وقال في مليح جُندٍ مرّ عليه متقلداً سيفاً:

تـقـلّد بـالهـنـديّ جـهـلاً ومـا درى   بـأن سيـوف اللّحظ أمضى من الهنـدي
غـزالٌ غـزا مـن قـدِّه بمـثـقّـفٍ   ومن هـدبـه بـالنبـل يـرشق في كبْـدي

---

(١) في الأصل: (أرى).
(٢) هذا النوع من الشعر، مما ينظمه الصفدي أو شاعرنا الزللي، ممن عرفوا في حياتهم بالاستقامة والوقار، لا يعدو كونه ضرباً من الوصف الصناعي التقليدي، وهو كالغزل التقليدي تماماً، لا دعوة فيه لفسق أو فجور.

ومبسمه يشفي ضنى كلِّ مُسقَمٍ
فريقتُه تُروي، ومقلته تُردي
يميناً لوَ انيٍّ ذقت برْد رَضابه
لأطفأ ذاك البرْد ما بيَ من وقْد
فمن لي برشف الراح من كأس ثغره
على أنّه أحلى مذاقاً من الشّهد
ومن دون معسول اللمى وارتشافه
مهزّ القنا العسّال من ذلك القدِّ
إذا ضلّ عقلي في غياهب شَعْره
فمن وجهه الوضّاح بالنور أستهدي
وإن لاح برْق الثغر منه فمدْمعي
يصُوبُ، وزفراتي تُصوِّت من وجدي
فمن زخرة الأجفان منهمَرُ الحيا
ومن زفرة الوجدان زمجرةُ الرعد

- ٣٣ -

وقال بالالتماس من بعض الأحباب في مليح اسمه يوسف[1]:

أنـا فيك يعقـوب الأسى يـا يـوسف
وعـلى نـحـولي مـن بـعـادك يُـوسَـفُ
بـي مـن غـرامـك مـا تميـد لـثـقـلـه
شـمّ الجـبـال، ولا أراه يُخـفَّـف
رفـقـاً فكـم بـالـصَّـدِّ تـنـويـني وعـن
(نـحـو) المحبـة، لست ممّن يـصـرف
الـلـهَ بي، إني مـشـوقٌ مـدنـف
لا يـرعـوي، لا ينتـهي، لا يـصـدف
هـذا الهـوى عـذري، فكن لي عـاذراً
فـالحِبّ يـعـذره المـحـبّ المـنـصـف
يـا مـا جـرى من مقـلتي يـا منيـتي
أو مـا كفى مـا قـد جرى يـا أهيف؟
مـن لي بـوصـلك سـاعـة في روضـةٍ
نـجني بهـا زهـر الـسـرور ونـقطف[2]؟

---

(١) تصرفنا في العبارة قليلاً، بغية تحقيق لياقة أفضل.

(٢) انظر ص ١١١ تعليق (٣)، ومقدمة التحقيق ص ٦٦.

- ٣٤ -

وقال وهو بالقاهرة، متغزلاً:

قلبي تكاد مياه اللطف تقطر من
أعطافه، لا يحاكي لطفَه الماءُ
من سهم جفنيه.؟ أو من رمح قامته.؟
كم طعنةٍ في سويدا القلب نجلاء.!
كالصبح غرّته، والليل طرّته
فحبّذا منه إصباح وإمساء
بطيب لقياه يحييني ويقتلني
هجراً، وكم منه أموات وأحياء
في القرب والبعد أبكي من محبّته
كما تنوح على الأغصان ورقاء

- ٣٥ -

وقال وقد التمس منه تطريز اسم حسين بالأوائل، وهو بالقاهرة أيضاً:

حبيبيَ صِلْ صبّاً به انقطع الحبلُ
وأنعِشْه باللقيا، فقد مسّه الخبلُ
سويهر جفنٍ ما تكحّل بالكرى
ومن أين يدري الوالهُ الصبُّ ما الكحل.؟

يمــوت إذا أعــرضت عنــه صبــابةً
ويحيى إذا أقبلت، واجتمــع الـشمــل
نعتْــه الــنــواعي وهــو حــيٌّ، وإنّ مــا
يقــاسيه من جــور الهـوى دونــه القتـل

- ٣٦ -

وقال في اسم يوسف المذكور آنفاً على لسان السابق:

يُخــجــل الــبــدر والــقــنــا والـغـزالا
إن بــدا، أو رنــا، ومــاس دلالا
وبــخــدّيــه أيّ ورد حمــاه
بــســهــام الأهــداب عــن أن يُــنــالا
سُــكْــر عــيــنــيــه دبَّ في الــقــدِّ منــه
فــلهــذا من نــشــوة الــســكــر مــالا
فــإذا مــا رأيــتــه قــلت: هــذا
يــوســف أورث الخــلــيــل[1] اخــتــلالا

---

(١) الذي طلب التطريز اسمه إبراهيم الملوي.

- ٣٧ -

والتمس منه حضرة فخر الفضلاء الكرام الشيخ حسن العطار القاهري[1]، أبياتاً في السيد أحمد المغربي، التاجر بثغر الإسكندرية، لمعروف أسداه إليه، فقال:

كـريمٌ لـه فضـلٌ يجـلُّ عـن الحسْبِ
ومعـروفـه المعـروفُ بـين المَـلا حَسْبى

إذا مـا دجـا ليـلُ الخطوبِ أضـاء من
مـكـارمـه نورٌ جـلا ظـلمـة الـكـرْب

فيا شمسَ أُفقِ الشرق، غيبي أو اطلعي
فكم شمس فضلٍ قد تبدّت من الغرب

- ٣٨ -

وكتب إليه وهو بالقاهرة الأديب أحمد الأزبكاوي[2] القاهري:

مـولاي كـيـف أقـول ثُـمَّ أمـين
وعـلى دعـائـي قـصّـر الـتـأمـين

مـا قـلت ذلـك في اهتـضـام فضـيلة
لـكن بـدت لي في الحـديث شجـون

والـنفس تـعجـز عـن رغـائب أُنـسهـا
في الجـدّ حـتى يـبـتـديـه مجـون

---

(١) العطار: هو حسن بن محمد بن محمود العطار، من علماء الأزهر (١١٩٠ - ١٢٥٠ هـ) ولد ومات في القاهرة، تولى إنشاء جريدة الوقائع المصرية، كما تولى مشيخة الجامع الأزهر سنة ١٢٤٦ هـ، له عدة مصنفات، منها ديوان شعر. (الأعلام ٢: ٢٢٠).

(٢) الأزبكاوي: لم أعثر على ترجمته.

هـذا الـتـقـاطـع والـديـارُ بـبـلـدةٍ
لـو كـنّ[1] في بلديـن، كيـف يكـون؟
وإلـيـك أحسبني مـضـافـاً إن جـرى
بـجـفـاك نـحـو إضـافـتي الـتـنـويـن
إن كـان مشهـور التفـاوت حـاجـبـاً
فـلـعـلـه بـإضـاعـة مـقـرون
أو عَـزّ إمـتـاعُ الـعـيـون لأنـه
بـأجـلِّ مـا تـخـتـاره مـضـمـون
فـامـنُنْ عـلى الأصـداف مـن أُذُنَيْ فتىً
لـكـمُ بمـا هـو جـوهـرٌ مـكـنـون
لـيس الـتـداني بـالـقـلـوب مـودّة
ولـو اقـتـضـتـه فـضـائـل وفـنـون
جـعـلت تـتـيـه ظـبـاؤهـا بـلـواحظ
لـلـسـحـر في حـركـاتهـن سـكـون
عـجـبـاً لهـا رسـلٌ بهـم قـد آمـنـت
أمـمٌ، وكـلٌّ سـاحـرٌ ويمـين
ويـزيـد وجـه الـلـفظ منهـا بهـجـةْ
مـهـما تـزد نـظراً إلـيـه عـيـون
وأودّ أن لـشـمـسـه غـيـمـاً فـكـمْ
بـدمـوعـهـا مـنـه تـفـيض[2] عـيـون

(١) المراد بالضمير في (كنّ) هي الديار.

(٢) في الأصل: (تحيض).

أقسمت بالجنات من لفظٍ له
إن المعاني فيه حُورٌ عين
انظر لعنقود الثريا تحت أر
جله يديم عصيره ويزين
يا عاصر الآداب خمراً لم يكن
في شُربها إلا النُّهى والدين
ومهذِّب الأيام حتى أقبلت
تفترّ في وجه الرجا وتلين
إن الرغائب في الحديث وحُسنه
وجليلُ ذاك على الكرام يهون
وإليك ألجأ أن يخيب توسّلٌ
ويفوت خطءٌ أو تسرّ ظنون
فلكم مظاهر سؤدد وشمائلٌ
تقضي بأن رشيدكم مأمون
أوردتها بحلَى النسيم لتنثني
من روض ذاكرِكم علي غصون
قد فاتها عجزاً ببحرك لؤلؤ
فعسى يقرّ العينَ منه النُّون

فأجابه معترفاً بقصوره، عن إدراك شأو منظومه ومنثوره:

مولاي حاشا أن يخون (أمين)
في قصد صدقك، أو يمينَ[1] يمينُ
داعيك لبّاه الفؤاد إجابة
منّا إليك، ووافق التأمين
ولأنت ذو المجْدِ المجدّ إذا بدت
للهازلين خلاعة ومجون
ولرُبَّ ذي جدٍّ يُرَى متماجناً
قصد الدعابة، والحديث شجون
والمزح يجلو ما تراكَمَ من صدا
عينِ القريحة، والضمير ضمين
ولربَّ ظبْيٍ من فتون عيونه
وفتور جفنيه: أنا المفتون
وجُننت بالسوداء من أحداقه
وذؤابتيه، والجنون فنون
جنّات وجْنته بها ما تشتهي
منّا نفوس، أو تلذّ عيون
والكوثر العذب الشهيّ رضابه
حتى النواظر منه حُور عين

(١) يمين: الأولى من المينْ، وهو الكذب. والثانية بمعنى القسم. وفي: (أمين) تورية.

والـدُّرّ والـيـاقـوت بـين شـفـاهـه
وبـوجـنـتـيـه الـورْد والـنَّسـريـن
مـتـمـنّـع عـن حِـبِّـه، مـتـرفّـع،
لا الحـدْس يـدنـيـه، ولا التـخـمـين
إنْ أنَّ قـلـبـي لا يحـنّ، ومـقـلـتي
بـدمٍ تجـود عـليّ وهـو ضـنـين
وبـليّـتي مـن ظـالمٍ مـتـظلّم
لم تُـقضَ مـنـه لـلمـحـبّ ديـون
أدنـو فـيـقـصـيـني، وإن واصـلـتـه
يجـفـو، ويـقـسـو مـعـرضـاً فـألـين
وتـراه يـعـتـبـني، فـيـوهـم عـتـبـه
أن الأمـين عـلى الـوداد يخـون
هـذا ولـسـت أراه إلا محـسـنـاً
أبـداً، ولا سـاءت لـديّ ظـنـون
ولـوَ أنّ قـلـبـي في يـديّ لـربّما
نـصِـل الـغـرامَ إذا بـدا الـتـلـويـن
مـع أنّـني أهـوى هـواه، وإنْ هـوَى
بيَ في الهـوان، فـلي إلـيـك ركـون
هيهـات هـيهـات التسـلّي عـن رشـاً
بهـواه عـنـصـرُ طـيـنـتي مـعـجـون.!
حُجِب الـكـرى عني بـأبلجٍ حـاجـبٍ
سـهـمُ المـنـون بـقـوسـه مـقـرون
دمـعي ومـبـسـمُـه الـنـضـيـد وعـقـدُه
الـكـلُّ مـنـهـا جـوهـرٌ مـكـنـون

لكنّ دمعي في التّراب مبدّد
وعلى الترائب عقدُه موضون[1]
بأبي وبي منه عيوناً غنجُها
عن كامن السحر المبين يُبين
سُودٌ تفوق البِيضَ في فتَكاتها
للحتْفِ في حركاتهنّ سكون
دُعجٌ، تلاعبُ بالعقول كأنما
من نظمك الزاهي لها تكوين
يا مفرداً في جمع أشتات العلى
ثانيه في ذا العصر ليس يكون
يا أحمد النبلاء آداباً، بها
صدرُ المحافل يزدهي ويزين
أبديت للبلغاء (معجز أحمد)[2]
كي يذعنوا لك بالذكا ويدينوا
والكلّ منهم مذعنٌ، لا قائل
ـ حسداً ـ: لكمْ دين كما ليَ دين
فاسلمْ ودمْ في روض فضلك قائلاً[3]
بنسيم لطفك تُستمال غصون
تُبدي وتُبدع في القريض تحائفاً[4]،
ولطائفاً، وطرائفاً، وتبين

(١) موضون: بعضه على بعض.
(٢) معجز أحمد: كتاب معروف للمعري، كتبه حول المتنبي.
(٣) قائلاً: اسم فاعل من القيلولة.
(٤) تحائف: مفردها تحفة، والقياس في جمعه: تُحف، كغرفة وغرف.

[تتمّة نثرية للرسالة]

أيها الشاعر الكاتب، بل المولى المكاتب، قد كاتبت ـ أعزّك الله تعالى ـ هذا العبد على حين إملاقه، علماً بقعود الدهر عن القيام ببدل إعتاقه، كأنما القصد استدامة رقّه بتعجيزه، لا استخلاصه من ربقة الرقّ بتنجيزه، وإنما أعيذك بالله كيف عرفت قصده، مع تكاسله في الخدمة، وهو موجب عن الباب العالي طرده.؟

فيا مولاي على كل حال، ومن لا يزال جيد الدهر بعقوده المنظومة بعد العَطَل حالٍ، إني لم أترك الجواب هذه المدة، متهاوناً بما لَك عندي من المودّة، غير أني مترقِّب حصول ما يروج في سوق عكاظ آدابك، وإلى الآن لم[1] يحضر ما أتوصل وأتوسّل به للوقوف على عُلا أبوابك. وما ذاك إلا أن الفكر مشتّت، وعقد الراحة منبتّ. والقريحة في جمودها كالصخرة، لا تكاد تَبِضّ بقطرة. فتجاسرت حيث لا مناص، وقدّمت هذا الصِّفر مموّهاً بالخلاص. فعذراً للمحب عذراً، وإن قابل إحسانك بالإساءة فغفراً غفراً.

والسلام، في المبدإ والختام.

---

(١) في الأصل: (فلم).

وكتب إليه الأديب أحمد الأزبكاوي المذكور، عقب وروده إلى القاهرة بما تتضمنه[1] هذه السطور:

من كسته محاسن أخلاقه، وعمّ نيِّر أدبه الكتب بإشراقه، تجاذبت القلوب إليه، وتودّدت بهدايا الثناء عليه، قياماً ببعض واجبه، وتمتّعاً في رياض مناقبه، وتعرّضاً إلى نفحات قبوله، وافتخاراً بين الأعيان، بقلائد مرتجله ومنقوله.

يا سائلاً عن أخ الآداب فاخرة
به أخيراً على أبنائها الأُوَلِ
قد أقبلت في ثياب الحسن خُرّدها
فصار فيها أسير العشق والغزلِ
حُلِّين درّ الثنايا في العقيق فما
لساحر اللفظ مدفوعاً عن العمل
للفظه تسجد الأقلام، بل وجدت
على يديه صدور الكتْب كل حُلي
(ما انبتّ)[2] سؤلك، هذي مصر شرّفها
من الوفود جليل القدر عن مثل
زار الكنانة بل فازت بأسهمها
من المعالي، وراحت رَوْحة الثَّمِل

---

(١) في الأصل: (تضمنه).

(٢) في الأصل: (ملنيت).

علت إصاباته من كل منقبة
فوجْهُ تذكارها[1] بالوصف منه جَلي
إن قارف الشعر من تقصيره زَلَلاً
نادته ذكراك: إن العجز بالزللي

- ٤١ -

فأجاب بهذه الأبيات، مع علمه بأنها كلها قصور، غير أنها متهدمات:

هيهات ما عاطل من حلْية كحَلي
ولا النبال كسهم سيم بالكحُل
وليس فارغ قلب من هوىً كمَلي
ولا الشجيّ بمن يهواه مثل خَلي
تريدني أبتغي في حبّه بدلاً
وليس لي عنه من ندٍّ ولا بدَل
أنَّى ليَ الميْل عن غصن ترنّح في
زُهْر الحُليِّ وأوراق من الحلل
بالنبل أهدابه ترمي، وقامتُه
واللحظ تسطو ببيض الهند والأسل
أغرَّ قاضي هواه قد رأى تلفي
يا ليت أن الهوى يقضي عليّ ولي
يودّ ظبْي الفلا لو كان يشبهه
في الالتفات وحسن الجيد والمُقَل

(١) في الأصل: (تذركارها).

يجلّ عن مثلٍ فيما حواه كما
جلَّ (الشهابُ) بهذا القطر عن مَثَل

(الأزبكاويّ) مَنْ آيات فطنته
وفضله ظهرت كالشمس في الحَمَل

أديب مصر الذي ظلت تُفاخر ما
عدا حماها بما قد حاز من جُمل

في رائق النظم والنثر البديع، وفي
سَوْق الرقيق لِسُوق المدح والغزل

فيا فريد بني الآداب أجمعِهِمْ
ومَن مآثره أعيَت على الأُوَل

من خدْرِ فكرك قد أهديتَ غانيةً
لحُسنها لم يوشَّحْ عِطْفُها بحُلي

وافتْ بلطفٍ فوفّت حقّ مُغرَمها
عَطفا، وأروته بعد النَّهل والعَلَلِ

وهذه يا عديم النِّد جارية
جاءتك تعثر في ثوب من الخجل

فابسط لها فضل ثوب الانبساط، ولا
تطوِ البساط، فلطْف الطبع عنك جلي

لا زلت تنظم في سلك الإجادة ما
يفوق منثور زهر الروضة الخضل

مؤمَّناً من مخوف الحادثات فلا
تَخشى إذا عثرةٌ في القول لم تُقَل

وأنت ذو رتبة مرفوعة أبداً
وخفض عيش مقيم غير منتقل

مـــا امتـاز بـــالـذوق من رقّت طبـــائعـه
وحـــاز غـــايـــة مـــا يـــرجـــوه من أمـــل

[تتمة نثرية للرسالة]

فيا رفيق حواشي الطبع الذي حاكت أنامل بيانه من غَـزْل الغزَل حللاً على سلوك الجمال ضافية، ودقيق الفكر الذي لو كان لابن الخباز (مذعناً)[1] اغتدى بعيشه الخاص في عيشة راضية. مهلاً؛ فسـواجع آدابـك تلكن الفصيح ولـو كان في الإحسـان كحسّان، ورويداً؛ فروائع افتنانك من قابلها بمثلٍ فقد غيّر في الوجوه الحسان. فأنَّى لي بمجاراتك، فضلاً عن مباراتك.؟ والذهن كليلٌ عن درْك شأو إشاراتك. فإليك هذا المنظوم في مقابلة دُرِّك؛ وهو خرز، واقبل هذا الصِّفر في موازنة تِبْرك راضياً بما نجز، ناظراً إليه بعين الرضا، مسبلاً عليه ستر الإغضا، وجميل الثناء يغشاك، في صبحك وممساك.

---

(١) في الأصل: كلمة غير واضحة، قريبة مما أثبتناه.
وابن الخبـاز: هو محيي الـدين محمد بن عبـد الله الأدرنـه وي، المعـروف بأتمكجي زاده، أي ابن الخباز، الرومي، الصوفي، المتوفى سنة ١٠١٤ هـ له عديد من المصنفات، منها ديوان شعر بالتركية. (هدية العارفين ٢/٢٦٦).

وهزّه الشوق وهو بالقاهرة، إلى ابنه المقيم بعده بالمدينة (المنورة)[1] الطاهرة، فكتب ممتدحاً حضرة الوزير الأعظم إبراهيم باشا، والي جدة، ملتمساً منه جلب ابنه إليه:

وفودُ الأماني نحو بابك تُرقِل
وخَوْد التهاني في رحابك تَرفل
وساحتك الفيحا سماً أنت بدرُها
وجندُك فيها أنجمٌ ليس تأفل
وجودُك بحرٌ فيه سُفْن رجائنا
جوارٍ، ومرساها النجاح المؤمَّل
وأنت الوزيرُ ابن الوزير الذي له
على رغم أنف الدهر مجدُ مؤثَّل
أبوك بنى بيت المفاخر والعلى
وأنت بتشييد العلى تتكفّل
يباريك - أنَّى سرتَ - سعدُك سائراً
ويقدُمك الإقبال والسعد أوّل
متى رمت أمراً كان لا بدّ حاصلاً
ولو كان صعباً فهو عندك أسهل
ومن يعتصم بالله في كل أمره
فما لأعاديه عن الحتف موئل
مآثر شتّى جمّعت كلّ مفخرٍ
لها في مقام الفخر أصل مؤصَّل

(١) زيدت للإيضاح.

فـهـيــهــات أن يـعــلو لهــا متــطاول
مـدى الـدهــر، أو يحظى بهــا متطوِّل
فيــا طــالبــاً إحصــاء غُــرّ صفــاتــه،
رويـداً، فقـد حـاولت مـا ليس يحصــل
فكــل بني الـدنيــا عن البعض قـاصــر
مــداهــمْ وإن يــطّاولــوا أو تــطوّلــوا
نـعـم، هــو فــرد لـلمكــارم جــامــع
يَــراعــي لآي المــدح فــيــه مــرتِّــل
غــدا في الــوَفــا والجــود أكـبــر آيــةٍ
فــما حــاتم في جــوده؟ مــا السمــوأل؟
فبــالملتجِي بَــرٌّ، وفي الخــوف مــأمـن،
ولـلمــرتجي بـحــر، وللضـيـف مـأمــل
إذا أعــطش الـنــاسَ الــزمــانُ فكفُّــه
بسُحْب العـطا تُـروي، وتَهمي، وتَهمــل
أوامــره الـعليــا يـنفِّــذهــا الـقـضـا[1]
فـتـنـفُـذ، حتى في الـصَّـفـا تـتـخـلّل
فلو خــاطب الـدهــر الغشــوم معــاتبــاً
عــلى مــا جــنــاه، جــاءه يـتــنـصّــل
يخوض غمــار المـوت، والحـربُ تلتـظي
ويَــلقــى عــداه بــاســماً يــتــهــلّل
وينصـل مثـل الصِّـلّ في حـومـة الـوغى
بـيعـبــوبــه، والخيــل تـقـعـي وتُـقـبــل

---

(١) مبالغة غير مقبولة.

فسابقُه يشكو الظما، وحسامُه

بنحر أعاديه يعلّ وينهل

ومَنْ حزمُه والعزمُ درع ومغفر

له، ورصين الرأي حصن ومعقل

وكم بشديد العزم ينحلّ مشكل

كما بسديد الحزم يفتح مُقفل.!

يجهّز للأعداء في كل لحظة

كتائب من تدبيره ليس تخذل

ومن كان حسن الرأي قائد جيشه

فما لأعاديه عن الحتف موئل

ويرعى رعاياه بيقظة حازم

بصير، فلا يغفو[1]، ولا هو يغفل

وكم ركب الأهوال حتى انجلت له

غياهبها كالصبح، والليل أليل

ويستصغر الأخطار من كان همّه

كبيراً، ويستعلي، وأعداه تسفل

فما ليَ لا أمْلَأ الطروس بمدحه

وأُملي أمالٍ[2] شرحهنّ مطوَّل

وأبني بيوتاً من ثناه عواليا

غواني المعاني الغُرِّ فيهن تنزل.؟

---

(١) في الأصل: (يغفى).

(٢) أمالٍ: كذا في الأصل، والصواب (أماليَ) بالنصب، كما هي القاعدة في الأسماء المنقوصة.

وقـد عمّني بـالـرِّفق والـرِّفـد دائبـاً
وخـصـصـني إنـعـامُـه والـتـفـضّـل
فـما عـشـتُ عـبـداً داعيـاً ببقـائـه
ومـا دام فـهـو الـسـيِّـد المتـفـضِّـل
فـيـا من بـه أَزْرِي يُـشَـدُّ، وخلّتي
تُـسَـدّ، وآمـالي تُـمَـدُّ وتُـوصَـل
لعمـرك إن القلب عن غـير قصـدِكمْ
لُمقْفٍ[1]، وأمـا نحـوكم فـهـو مُقبـل
وإني عـلى الإنـعـام والـبـرِّ شـاكـر
ولا أشـتكـي دهـراً عـلى الحـرِّ يجهـل
سـوى البعدِ عن ريحـانة القلب (أسعـد)
بُـنيِّـي، فـقـلبـي بـعـده متـمـلمـل
نهاري ولـيـلي في عـنـاءٍ وكُـربـةٍ
أكـفـكـف دمـعـي، والمـدامـع تهـطل
ففي الصبـح سـاهٍ لا أُفيق، وفي المسـا
بـرعْـي نجـوم الأفـق طـرفيَ مـوكَـل
ولم يـهْـنَ لي كـأس الـسـرور مـروّقـاً
ولا لـذّ لي من فـائق الـزاد مـأكـل
أخـاف عـليـه أن يـضـيـع لـبُـعـده
عن العين، والـريحـان إن سـاب يـذبـل

---

(١) قال في لسان العرب: المقفيِّ: المولّي الذاهب... وفي الحديث فلما قفّى قال: كذا، أي فلما ذهب مولّياً، وكأنه من القفا، أي أعطاه قفاه وظهره.

ولــو كــان لابـني راحــة[1] مــا تفتّتت
لــه كبــدي، كــلاّ، ولا كنـت أســأل

فـحـقّـق ـ رعــاك الله ـ ظـني، وراعــني
بـإنجـاح مــا أبغـي، وأرجــو، وآمـل

وأنــعِـمْ بــجـذْب ابني إليَّ تــفـضــلاً
فــشــوقي إلــيــه مُـقــلـق ومـقــلـقـل

لــعــلّي إذا أبــصــرتــه أو رأيــتــه
أُفــيــق، فــعــقــلي هــائـم ومخــبَّــل

عسى مهجتي الحـرّاء[2] يُـطفَـا ضـرامُهــا
بــبــرْدٍ تــلاقــيــه، وحــزني يــبــدَّل

عسى مقلتي تــرقــا، عسى النــوم يتّقي
بهــا، وعسى يصفــو من الــودّ منهـل

عسى يــا أفنـدينــا بحسن اهتمــامكـم
يهــذّب في هــذي الــديــار ويــكـمـل

عســاه إذا مــا حــلّ أزهــر جــامـع[3]
يحـلَّى لــه بــالــعـلم جــيــد مــعــطّل

فــما لي رجــاء غــير هــذا، وإن لي
حـنينــاً لــه يَحْني الـضلوع ويُـنـحـل

ومــا أنــا بــالــشــاكي ولــكــنّهــا إذا
تــوسـعـت الأقــراح ضــاق الـتحـمّــل

(١) في الأصل: (براحة).
(٢) القياس: (الحرّى)، ومذكّرها حرّان، فهو من مدّ المقصور.
(٣) يدل هذا البيت على أهمية الجامع الأزهر في البلاد الإسلامية تلك الأيام، وأن الرغبة في الدراسة فيه من عوامل السفر إلى مصر.

وهـذا بـريـدُ البرْد قـد جـاء مقبـلاً
وحـالُ دقيق البُـرْد في البَـرْد مـشكـل
(وفي النفس حـاجـات وفيـك فـطانـة)
سـكـوتي عـنهـا مـن كـلامـي أجمـل
وإن نـظر المـولى إلى حـال عـبـده
بلطفٍ وعـطفٍ، فـالمقـاصـد تحـصـل
ولـيس سـوى عَليـاك لـلحيّ مـنـقـذ
إذا نـابـه أمـرٌ من الـدهـر معضـل
ولـسـت أرى غـير الـثـنـاء وسـيـلة
إليـك[1]، إذا أعيـا الـرجـالَ التـوسُّـل
فـأبـديتُهـا غـرّاء، لـو لاح حـسنُهـا
لشمس الضحى تخفى، وللبـدر يـأفـل
بـليغـة ألـفـاظٍ، فـصيـحـة مـنـطقٍ،
تجـوّد آيـات الـثـنـا، وتـرتِّـل
وتـروي حـديث المـدح فيـك مصحَّحـاً
ويـا حـبـذا ذاك الحـديث المسـلسـل
مـهـذّبـة جـلّت ودقّـت مـعـانـيـاً
ورقّت، فمعنـاهـا من الحسـن أكمـل
ومن لـطفهـا لـولا جـزالـة لفـظهـا
لسـالت معـانيهـا كـما سـال جـدول
تجـرّ ذيـول الـفـخـر تـائـهـة عـلى
(جـريـر)، وذيـلُ الفخـر منهـا مـطوّل

---

(١) في الأصل: (عليك).

وما لـ (زهيرٍ) شمّة من عبيرها
وهيهات أن يحكي شذا المسك جندل
فهيىء لها بيت القبول لعلّها
إذا هي حلّته به تتأهّل
فمعروفك المعروف لا زال سابغاً
وغوثك للملهوف لا زال يؤمَل
ودمت ولا تنفك ترقى مراقياً
من العزِّ، أدناها من الشمّ أطول
بأبّهة تسمو، وتنمو، وهيئة
تجلّ، وتستجلى، ولا تتحوّل
ولا زلتَ يا عينَ العلى صدْرَ دهرِه،
وجيدك من حَلْي الثنا لا يعطَّل
وأنت تجير المستجيرين مثلما
تجيز وتجزي مادحيك وتجزل
وترجع بالإكرام منك إذا سعت
وفود الأماني نحو بابك تُرقل

- ٤٣ -

ولفّ هذه القصيدة اللامية في ورقة فيها هذه الأبيات من نظمه:

يا أفخرَ الوزرا، هذي جويرية
بكرٌ عَروب، تفوق الشمس في الأفقِ
وافت إليك تجرّ الذيل معجبة
بحسنها، وهي في ثوب البَها العبِق

وكيف لا، ولها من درٍّ مدحتكمْ
تاجٌ على الرأس، أو عقد على العنق؟
فانظر إليها بعين اللطف مبتهجاً
كيلا تذوب حياً في حلّة الورق
دامت تُزفّ لك الأبكار مسفرة
عن حسن منتسق، أو طيب منتشق

- ٤٤ -

وقال ممتدحاً الوزير المشار إليه، وضمّنها عَرْض الحال عليه، وهو (بدور عائد)[١] من صعيد مصر، بالقرب من خروجه من مصر إلى المدينة المنورة، وذلك سنة ١٢٣٨ هـ.

معاليك جلّت أن يكون لها مِثْل
وما هي إلا الآيُ كلٌّ لها يتلو
أرى كل ذي مجدٍ يروم تعالياً
إلى رتبةٍ ما زلت في جَدِّها تعلو
وأين الثريّا من يديه تناولاً؟
وهيهات أن يسمو سموَّك أو يعلو.!
وربّتما ظن الغبيُّ بأنه
يساويك في فضل، وليس له فضل
وتشتبه الأشياءُ خَلْقاً وصورةً
ولا يتساوى الطَّوق في الجيد والغلُّ

(١) كذا في الأصل، فهو إذن قد يكون مكاناً معيناً. ولعلها: (يدور عائداً).

وقــد يتســاوى الشيء بــالشيء هيئــة
وشكلاً، ولكن ليس كالكَحَلِ الكُحْل[1]
وفي كــل عــودٍ فَــوْحَــةٌ مـن دخــانــه
وهـل يتسـاوى المنـدلُ الـرطْب والأثــل؟
وكــلٌّ لــه حظٌّ من الـوصف كـاشـفٌ
حـقيـقــةَ معنــاه، إذا خفِـيَ الشـكــل
فـفي الخمــر إطـرابٌ وطِيـبٌ ونـشــوةٌ
وتــلك مـعــانٍ مــا تحــلّى بهــا الخَــلّ
ولــولا ارتـيــاحُ الـروح للرّاح لم يـكـن
بــراحتهــا عِـقْـد المتــاعب يـنحــلّ
ومــا الخصبُ إلا حيث كـنت مخيِّــماً
وكـلّ محــلٍّ لا تحِـلُّ بــه: مَحْـل
وإنّ نــدى كـفّـيـك غـيــث مــداومٌ
بــه يـنهــل الـعــافي، ومــا زال يـنهــلّ
وإن ســهــام الــرأي مــنــك خــوارق
وعن غـرضٍ ما طـاش من رمْيهـا نَبْـل
ولــو سُقِي الـفــولاذ عــزمــك لم يكـن
إذا صيــغ سيفــاً في الـتقــارع يـنفــلّ
وأنت الــذي عَــلَّى من الحــزم معقــلاً
منيعــاً، عليــه من حصــانتــه قُفــل

---

(١) الكُحْل (بضم فسكون): ما يكتحل به، كالإثمد ونحوه. والكَحَل (بفتحهما): أن يعلو منابت الأشفار سوادٌ، خلقة أو تسويداً.

وأنت الذي وفّى لآمل جوده
بإنجاح ما يرجو، حياً منك منهلّ
فكم بالندى والبأس، أحييت ميّتاً،
وأهلكت أجيالاً يكاثرها الرمل.!
وكم أطلقت كفّاك من قيد فاقةٍ
كما أسرَتْ في عقدة ما لها حلّ.!
فلو سرت فرداً والعُداة تجمعت
وسِيق إليك الجيش والخيل والرَّجْل
وجاءهمُ عنك النذير: تمزّقوا
أيادي سبَا[1] طرّاً، وما جُرِّد النَّصل
وكم خضتَ غَمْرات الردى لِلقا العدا
فلم يُخْطِهم نهبٌ، ولا فاتهم قتل
ومن كان ملحوظاً بعين عناية
سواء عليه كثْر أعداهُ والقلّ
فيا أيها الشهم الوزير الذي إلى
مكارمه كلٌّ يشير، ولا يألو
ويا ابن الوزير المجتدَى سيبُ جوده
وسُحبُ نداه لا يكفّ لها هطْل
لك الجود يعزَى، والمكارم تنتمي
وأنت ـ ولا شخص سواك ـ لها أهل
ومن يرتقي[2] من شامخ المجد ذروةً
تهنْ عنده الدنيا، ويَحْلُ له البذل

(١) الصواب: (أيدي سبا)، وهو مثل مشهور.
(٢) يرتقي: كان حق هذا الفعل أن يجزم، لأنه فعل الشرط.

فكم جدت من قبل السؤال سماحة
وعطفاً، ولا مَنٌّ يكدّر أو مطْل
ومن جرّ ثوب الفخر صان ذيوله
حذاراً وخوفاً أن يدنِّسه الوحْل
فلا بِدْع أن تسعى إليك ركائب
تساوَى لديها الوعْر في السير والسهْلُ
وإن تُقتحمْ[1] لجُّ البحور فإننا
سعينا إلى بحرٍ موارده تحلو
وقاصد بحر النيل لا يشتكي ظماً
وإن عاد بعد الريِّ يملا له سجْل
وإنك يا ابن الأكرمين أرومةً
لأكرمُ من تُهدَى لساحته السُّبْل
بك اتصلت أسباب آمال مَنْ غدا
عن الأهل مقطوعاً، ويا حبذا الوصل
إليك طوى بُسْط البسيطة أمْسه
وأصبح من نشر الشِّراع له شُغل
وقد علِقت آماله ببلاده
وحنّ له الأطفال والجار والأهل
وعنّ له جذب العيال مع ابنه
إلى طيبة الغرّا ليجتمع الشمل
وأُعطِي إذناً للرجوع لداره
وما عاق إلا خفّةُ الكيس، والثّقل

(١) في الأصل: (نقتحم).

وهــا هــو قــد وافى إلــيــك مــؤمِّــلاً
وفي السنــة الشهبـاء يُستمــطر الــوبْــل
فيـا لائمي في عـرْضِ حـالي عـلى الـذي
يـرقُّ ويـرثـي لـلأعـزّة إن ولّـوا
رويـدك يـا هـذا، بـأيـة حـيـلة
يكـون رجـوعي الـدار، والحـال مختـل؟
وكيف مـطاري والتغـرّب حَصَّ[1] من
جناحي، وباقي الـريش بالعجـز مبتـلّ؟
أعـود لأهـلي بـعـد طـول تـغـرُّبي
ولا كـسـوة تُهـدىَ إليـهـم ولا نـقْـل[2]؟
أُقـابـل أحـبـابي بـوجـهـي وكـلُّهـمْ
ينـاظـر مـا أُهـديـه لـوْ أنـه البقْـل؟
أُواجـه أقـراني بـأثـوابيَ الـتي
خـرجت بهـا عنهم، وأخلقهـا الغَسْـل
وفي الـعيـد لا لابـني، ولا ليَ، كسـوة
أتت، وتقضَّى العيـد وانـقـطع الحبـل
أفي شـرعـة الإنـصـاف أنيَ خـادم
وضيفٌ، وينسوني، وقد كُسِي الكـلُّ.؟
وهـا بيتُ صبري مثل شعري مقـطّع
وشعـري كعقـلي حـين داخلَه الخبْـل

---

(١) الحص: حلق البشرة، وفي هامش المخطوطة: (قصّ).

(٢) النُّقْل (بضم فسكون): الجوز واللوز ونحوهما.

فقـل لي لمن أنهي وأشـرح قصـتي.؟
وقـل لي بمن يُهـدَى الحيارى إذا ضلّوا؟
فـلسـتُ أرى إلا مَـعـينَ نـوالـه
مُـعينـاً، ومـا لي غـير دوحـتـه ظِـلّ
فكن يـا أفنـدينـا لنـا خـيرَ مُسـعِـدٍ
فقـد أزِف الترحـال، واقـترب النقـل
فـلا زلـتَ تحـبـو الآمـلين تـرحّمـاً
وتحـنـو عـلى المسـترحمـين بمـا يحلو
ودام لـك الإقبـال، والسعـد خـادم
وتمّ لـك الإجـلال والمجـد والـفضـل
مـدى الدهـر، ما زُفّت عـروس مـدائـح
لعليـاك، مـا غـير القبـول لهـا بعـل
بـدُرِّ الـثنـا آذانُها قـد تـشـنّـفـت
وفي رأسهـا تـاج، وفي سـاقهـا حِجْـل
ومن خجـلٍ في مِـرْطهـا قـد تلفّـعت
وإني لأخـشـى أن تـزِلّ بهـا الـرِّجْـل
فـآنِسْ بلطفٍ منـك وحـشـتـهـا، ولا
تـرُعْـهـا بـإعـراض بـه يـذهـل العقـل
ولِنْ جـانبـاً، واحتـلْ لكشف قناعهـا
ولا تـطّرحهـا إن يُمـل عِـطفهـا الـدّلّ
فـإن نـفـار الـظبْـي ممـا يـزيـنـه
ومَيْـل غُصيْن البـان ليناً هـو العدل

وأمره حضرة الوزير المذكور أن ينظم قصيدة في شأن النظام الجديد[1]، من مدحهم، ووصفهم، والثناء على معلمهم، ووصف حركاتهم، ومع ذلك تكون مدحاً في حضرة والده الوزير الأعظم محمد علي باشا والي مصر حالاً، فنظم هذه القصيدة، وقدّمها إليه:

مديد انتظام في جديد نظام
أصاب، ولم يُخطىء مرام مرامي
فلله منهم عصبة قد تمنطقت
بشدة حزم، لا بشدِّ حزام.!
تعادَوْا إلى التعليم في الحرب رغبة
كما تتعادى للورودِ ظوامٍ
وإن دفاع الشرِّ ضربة لازب[2]
علينا، وجلب الخير خير لزام
ومن رام أمراً ليس يعرف حكمه
وإن كان حِلًّا، فهو مثل حرام
ومن يبغِ إحراز الصلاة جماعةً
فلا بدّ من أن يقتدي بإمام
لذاك ترى قدْر المعلِّم صاعداً
على كل عالٍ في الأنام، وَسامٍ

(١) النظام الجديد: يقصد به إصلاح الجيش على أساس من التنظيمات والأزياء والأسلحة الحديثة، وإلغاء الانكشارية، وقد بدأت هذه المحاولة في عهد السلطان سليم الثالث، وهي التي أدّت إلى خلعه سنة ١٢٢٢ هـ على يد الانكشارية، بمساندة المتزمتين المعادين لكل جديد.
(٢) في الأصل: (لازم).

ومــا يستـوي الشخصــان غُـمْـرٌ وعــالم
كـــما لا يُــســاوَى نــاقص بــتـــمــام
وإنّـــا لـــنـــدري قـــدر قـــوم تهـــذّبـــوا
وبــالجــدِّ مــنهـــم قـــد رقَــوْا لمــقــام
تحـــالـــوا مـــن المـــوت الـــزؤام مـــرائـــراً
إذا صـــدّع الأكـــبـــاد حـــرّ أُوام
يصفّـــون في الهيجـــا صفـــوف صـــلاتهم
فـــهـــمْ بـــين حـــاليْ رُكّـــع وقـــيـــام
كـــأنهمُ الـــبـــنـــيـــان في وصـــف رصـــفـــه
ويـــا حـــبـــذا وصـــف بـــديـــع نـــظام
مـــقـــاديمُ لم يُـقْـفـــوا[1]، ولم يَـقِـفـــوا إذا
مـــشـــوا كـــســـحـــاب في الـــســـماء ركـــام
تـــراهـــم عـــلى وثـــبـــاتهـــم وثـــبـــاتِـــهـــمْ[2]
ســـراعـــاً لصَـيْـــد الصِّـيـــد يـــوم صـــدام
مُـــعـــدِّيـــن حـــســـب الاســـتـــطـاعـــة قـــوةً
وأخـــذاً لحـــذْرٍ مـــن وثـــوب مُحـــام
ويمســـون من خمـــر الشجـــاعـــة في الـــوغى
ســـكـــارى، ومـــا ذاقـــوا عـــتـيـــق مُـــدام
وفي المـشْي يختـــالـــون حـبّـــاً وفـــرحـــةً
بـــلُقـيـــا الأعـــادي، لا بـــحـــبِّ قَـــطام[3]

---

(١) سبق التنبيه إلى معناها.

(٢) وثباتهم: الأولى جمع وثبة. والثانية: الثبات.

(٣) قطام: اسم امرأة كحذام، والمقصود هنا مطلق المرأة.

وحسبهُمُ هـذي الـصفـات مَفـاخـراً
ففي الـذكـر قـد وافت، وخيرِ كـلام
حمـاةٌ، كـمـاةٌ، كـاثـروا آل يـافـثٍ،
فـأنَّى لـسـامٍ مـا حـوَوْه وحـامٍ
بَهـالِيـل، شبّـان تُـشيب حـروبهمْ
نـواصـيَ ولـدانٍ، وفَـوْدَ غـلام
بنـادقهمْ مثـل النجـوم طـوالعـاً
بـلَيـلِ دخـان في سـماء قـتـام
إذا لمـعت في كـفّهـم خلت شعلة
عـلى كفّ عفـريت بجنـح ظـلام
وإن حرّكـوا من ذلـك الزنـد ساكناً
ومن رَمْيـهـا قـد طـار صـوتُ حِمـام
تَـرَ البـرقَ والـرعـدَ المـزمجر مـرسلاً[١]
صـواعـقَ نـارٍ عـنـد وكْـفِ غـمـام
فـأين الـردينيّـات من عـظْم وقْعهـا؟
وأيـن نـبـالٌ مـن كـنـانـة رام.؟
وأين السيـوف المـرهفـات إذا سـطت
وعـادت بحـدٍّ في الحـروف كَهـامٍ[٢].؟
ومـا الحتْـف إلا في الـبنـادق كـامـن
ويـظهـر لّمـا تـرتمـي بـضـرام

---

(١) في الأصل: (مرسل).

(٢) كهام: كليل.

ومن خاض في بحر الردى وعدا على
عداه، تخطّاه مصيب سهام
وإن شجاع النفس حقّاً لَواثقٌ
بمولاه، في حالَيْ رضاً وخصام
يخاطر بالنفس النفيسة نخوةً
ورجْوَى ثوابٍ، أو مخاف ملام
سواءٌ عليه أن يصاب وأن يُصِبْ(1)
برشق سهام، أو بحدّ حسام
وتبّاً وتعساً للجبان، فإنه
لئيم، ولو أمسى جليس كرام
إذا اصطدم الجيشان، واشتجر القنا
يُرَى ذاهلاً لا يهتدي لمرام
يودّ بجحر الضّبِّ لو كان لبْثه
ويعدو إلى خلف كرئل(2) نعام
ومن كان ذا حزمٍ وعزم وصولة
تقادُ المعالي نحوه بزمام
ويغدو لكثْرْ الحاسدين (محمّداً)
كذات أفندينا، (عليٍّ) مقام
وزيرُ ملاَ دسْتَ الوزارة هيبةً
وأخلى الأراضي من عتاة لئام

(1) وأن يصب: كذا في الأصل، مع أن الفعل الأجوف غير مجزوم.
(2) رئل نعام: ولد النعام.

وحاط الرعايا بالرعاية، فهي إذ
تراعيه، ما ريعت بخفر ذمام
سما في المعالي عن سموّ مقارن
فأنّى يساويه.؟ وكيف يسامي.؟
ومن ذا الذي يسمو إلى غير غاية
سواه بأخلاق لديه وِسامٍ
إذا فرّق الآراء عن قوس فكرِه
أصاب على قرب بعيد مرام
وإن رام بحر النيل يحكي عطاءه
ووبْلُ الحيا كفّيه وهي هوامٍ
فقد صار وجه النيل يحمرُّ خجلةً
ومزن السما غيظاً بكى بسجام
فما هو إلا في المكارم آية
بنو الدهر يتلوها[1] ليوم قيام
مواهبُه صاغتْ لآمِل جودِه
أكاليلَ قد حلَّيْن حاسر هامٍ
وطوّقن أعناق الرجال ببرِّه
فها هيَ تزهو فوق كل هُمام
وقلّدن لبّات الصدور قلائداً
بسلك الثنا والمدح ذات نظام
ولم تتعطّل من حُليٍّ يساره
أصابع يمنَى قد زهت بختام

(١) يتلوها: كذا في الأصل، بحذف النون من غير موجب نحوي.

ويـا حبّـذا منـه مـآثـر في الـعـلى

بـيـوم وشـهـر قـد أُثِـرْن وعـام

جـديـد نـظام، وانـتـظام ممـالـك

أزالا عـن الـدنـيـا كـثـيـف لـثـام

أقـامـا لمـفـروض الجـهـاد دعـائـماً

وقـامـا بـأمـر الله أيّ قـيـام

وإحكـام أحكـام بهـا مصـر أصبحت

تـتـيـه عـلى أرض الـعـراق وشـام

وسـار مسـير الشهب طـائـرُ صيتهـا

ولم تـتـرضَّ عـن أجـلِّ مـقـام

وجـنـد يـسـدّ الأفـق جـمٌّ جمـوعـهـا

وتـزدحـم الأقـدار أي زحـام

لقـد مـلأت غـور الـبـلاد ونجـدهـا

وغـنّـت حـجـازاً في جـبـال تهـام

تـرامـت إلى أقـصـى الـبـلاد بهـمّـة

وسـامـت وحـامـت في قـبـائـل حـام

فهـذا هـو الفخـر العظيم الـذي بـه

يخـلّد ذكـر المـرء طـول دوام

فـلا تـعـذلـوني إن هـتـفـت بمـدحـه

كـما هـتـفـت في الـروض ورُق حمَـام

فـذهـنيَ غـوّاص، وفـكـريَ نـاظـم

ومـن بحـره استخـرجـت درّ كـلامي

- ٤٦ -

وقال مؤرّخاً النظام بأمر حضرة فخر الوزراء إبـراهيم باشـا أدامه الله:

نـظام جـديـد فـاح عـنبـر طـيـبـه
ولاح هـلالاً بـعـد طـول مـغـيـبـه
بـخطّ أفـنـديـنـا استـتـم مـؤرخـاً:
نـظام عـليّ زاد فـايـح طـيـبـه

(١٢٢٨ هـ)[1]

(١) كذا في الأصل، ولكن يبدو أن الصحيح هي سنة ١٢٣٨ هـ وتوضيح ذلك كما يلي:

نظام = ٩٩١
علي = ١١٠
زاد = ٠١٢
فايح = ٠٩٩
طيبة = ٠٢٦
١٢٣٨

فيكون الشاعر نظم هذين البيتين في أيامه الأخيرة بمصر، وهو يستعد للرجوع إلى المدينة.

وقال وهو بمصر متغزلاً:

فقت بدر السما عُلاً واستنارة
وكمالاً وبهجةً واستداره
وفضحتَ الغصون في الروض ليناً
واعتدالاً وقامةً ونضاره
وأعرت الغزال في البرِّ جيداً
والتفاتاً، وعينَه ونفاره
ولماك الشهيّ للراح أهدى
نشوة تسلب الرقود وقاره
وثناياك ترخص الدرّ، فانظر
كيف تغلو الصغارُ منها كباره
وجمعتَ الضدّين، فالجسم ليناً
كحريرٍ، والقلب يبْس الحجاره
وعلى وجنتيك ماءٌ ونارٌ
لكن الماء ليس يطفىء ناره
قسماً إنني بحبك مُغرىً
مغرَمٌ، خضت في الغرام غماره
لم يفتّح أقفال صندوق صبري
غير رقيا عيونك السحّاره
آه يا حالي المعاطف حسناً
كم بسهم النوى شققت مراره

واختلست الفؤاد من جيب صدري
هكذا هكذا تكون الشطاره
فعلام أعدّ حبّك ربْحاً
وترى أن وصل مثلي خسارة
وأغالي في سوميَ الوصل ممّن
لم يزل مُرخصي، فبئس التجاره
ولماذا لماك وهو بَرودٌ
بين أحشايَ قد أثار حراره
لا ترع أيها المهاجر صبّاً
ليس إلا دموعه أنصاره
يا حبيباً إليه نفسي اطمأنّت
وبالاعراض نفسه أمّاره
هل رأيت الحشا تشيطن حتى
بحصَى البعد قمت ترمي جماره
إنما وجنتاك كعبة حسن
أسبل الهدب فوقها أستاره
وبها القلب طاف منذ تردّى
برداءِ الهوى، وشدَّ إزاره
فأنِلْ مُحرِم الجفون كَراها
منك إتمام حجِّه بالزياره
فعسى من مشاعر الوصل يمسي
قاضياً نُسْك حجِّه واعتماره

وقال وهو بها، متغزلاً في (. . . .)[1] ذي رشاقة وبهاء:

ترى أرى في الصبر عن حبّه عُذراً
وتصبو له في خدرها الغادة العَذْرا.؟

تراني أنساه، وفي كلّ لحظةٍ
تجدِّد أشواقي ببالي له ذكراً.؟

ترى مهجتي تهوى سواه، ولا أرى
سوى وجهه شمساً تضيء ولا بدرا؟

مليح، مليٌّ، من محاسنه مَلاَ
فؤادي بصرف الحبّ، واستفرغ الصبرا

أمير جمالٍ، في القلوب مملَّك،
له طلعة في الحسن تستعبد الحُرَّا

على وجنتيه أطلع الحسنُ وردَه
وأسبل فوق الخدّ من هدبه سترا

وقد أشرقت شمس البها من جبينه
فما جفّفت غصناً، ولا أذبلت زَهْراً

ومن نسمات الدلّ يرقص قدّه
كما يرقص النشوان في مجلسٍ سُكراً

تناجي قلوبَ العاشقين عيونُه
وتوحي لها سرّاً، فتهتكها جهراً

---

(١) كلمة لا موجب لذكرها.

ويقلب أعيان الحقائق جفنُه
كأن به هاروت قد أودع السحرا
فما في ملاح العصر مُشبهُ حسنه
وأنَّى يحاكَى حسنُ طلعته الغَرَّا؟

- ٤٩ -

وقال أيضاً:

جنة لست أنت فيها أراها
مثل نار الجحيم حَرّاً ووقدا
وأعدّ الجحيم لو كنتُ فيها
معْك - لا ذقتَها - سلاماً وبرّدا

- ٥٠ -

وقال:

لك في الخدّ جَنة هي نار
ولظى حبك المبرّح جُنّه
يا ترى هل سوى المبيح لهذي
نائل، أم بعقلِ مُضناك جِنّه؟

- ٥١ -

وخرج ذات يوم وهو بمصر، يريد الحمّام، فصادفته شدة ريح، فلما دخل الحمّام قطر عليه عرق القَزان الذي بقبّته، فقال:

مـالي ومـصـرٍ وبـحـمّـامـهـا
وطُـرْقـهـا، ذقـتُ ألـيـم الـعـذاب؟
حمّـامُـهـا يـبـزُق في لحـيـتي
وأرضُـهـا تحـثـو بـوجـهـي الـتـراب!

- ٥٢ -

وقال في (. . . .)[1] اسمه رضوان عند باب القاهرة المعزّية:

مـا مـصـر إلا جـنّـة زُخـرفـت،
فـيـهـا لـنـا رَوْح وريحـان
الحُـورُ والـولـدان مجـمـوعـة
بهـا، وعـنـد الـبـاب رضـوان

(١) كلمة لا موجب لذكرها.

- ٥٣ -

وقــال غــزلاً:

قــالـوا: حبيبــك مثــل البــدر طلعتــه
فقلت: حــاشــاه من ذا النقص حــاشــاه

البــدر يخسـف، والنـقـصــان يـلحـقــه
حتى المـحــاق والاسـتــســرار يــغـشــاه

وجــه الحبيب بــأفق الحسن مــطلعــه،
والــقــلب مــنــزلــه، والــطرف مــأواه

هيهــات هيهــات.! مــا للشمس رونقه
ولا الـشــريّـا حـكــت مـنــه ثــنــايــاه

الله أكــبــر مــا في الخـلق مُــشـبــهــه
لــو صُــوِّر الحسن لفــظاً كــان معنــاه

- ٥٤ -

وقــال أيضــاً:

ظبْي رقيق الحــواشـي كــدت أشــربــه
لـفــرْطِ رقّـتــه، إذ مــاس بــالـنــادي

لــولا النــطاق عــلى عــطفيــه يمسكــه
لســال مثــل مسيــل المــاء في الــوادي

- ٥٥ -

وقال في (. . . .)[1] يبيع (النقل)[2] في مصر، بالتماس بعض محبيه:

كيف التئامي بخلّ لا تودّ له
نفسي فراقاً، وقلبي مَعْه في شُغُل
أنا بأرضيَ مرتاح مدى زمني
وصاحبي قلبُه يرتاح للنُّقَل

- ٥٦ -

وقال فيه:

يا لائمي عدِّ عن لومي، على تعبي
في حبّ ذا النُّقَليّ الساحر المقَل
أنّى يقرّ قرار للغريب إذا
كانت له مهجة ترتاح للنُّقلي؟

---

(١) كلمة لا موجب لذكرها.

(٢) كذا في الأصل. وفي المعجم الوسيط: النُّقْل: (بضم فسكون) ما يتنقّل به على الشراب من فواكه وكوامخ وغيرها، وما يتفكّه به من جوْز ولوْز وبندق ونحوها، وأكثر ما يكون ذلك في ليالي رمضان (مولّد).

وكان ليلة الرؤية بحانوت مع بعض أحبابه للتفرّج، وأمام الحانوت حانوت رجل اسمه محسن، وكان بها من ملاح الزمن، من كل ذي شكل حسن، ثم أنه جلس يوم خروج محمل الخان[1] في تلك الحانوت، فرأى فيها ثلاثة أنفار، أحدهم محمد ضرغام القاهري، وأخوه عثمان ضرغام، والثالث كأنه ضرغام، فقال هذين البيتين مخاطباً بهما محسن المذكور:

حانوتك الفيحاءُ يا محسنُ
سبحان من أبدعها في الوجودْ
بالأمس قد كانت كناس الظِّبا
واليوم قد صارت عرين الأسود

(١) كذا في الأصل، ولعلّها: (الحج).

- ٥٨ -

وحين وصوله إلى القاهرة سأله بعض الناس: ألك[١] في مصر بيت؟ أم لك بها جَوارٍ؟ فقال في الحال:

أَلِفت البراري والقفارَ، ولم أزل
أجوب الفيافي، واحداً، ليس لي ثانٍ[٢]
ففي كل أرضٍ لي بيوت مَشِيدةٌ
يُشيِّدها فكري، ولا بيت يغشاني
وما لي جَوارٍ غير سفن مطالبي
ببحر أمانيها، وأدمع أجفاني

- ٥٩ -

وقال وهو بمصر:

بأبي من صنتُهم في مهجتي
وهمُ سترُ اصطباري هتكوا
صرتُ في الحبّ لهم عبداً فَيا
لَيتهمْ لو أحسنوا إذ ملكوا
نصبوا الفخّ لصيدي وأنا
أفتديهم، فعلوا أو تركوا

---

(١) في الأصل: (هل لك..).

(٢) لم يُظهر الإعراب في البراري، والفيافي.

فمن الشَّعر لعقلي شبَك
ومن الهذْب لروحي شرَك
لست أرتاح لذكري غيْرَهمْ
وهمُ قصديَ أنَّى سلكوا

- ٦٠ -

وقال يمدح الشيخ أحمد الشِّرْواني[1] صاحب (الحديقة) المشهورة، مشجّراً:

أطربت عبدك يا من ما جرى وطرا[2]
لذي نُهى ذكرُه إلا قضى وطراً
حزت المحاسن جمعاً والمقارن في الآ
داب فرداً، فما أبقيت للشعرا؟
ما شام مثْلك في بدوٍ ولا حضَرٍ
من طاف طول الزمان البدْو والحضَرا
دعوايَ فيك عليها حجة ظهرت
من نظمك العذْب يا من نظّم الدُّررا

(١) الشرواني: هو أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، المعروف بالشرواني، أديب يمني، ارتحل إلى الهند، واتصل بسلاطينها، من كتبه: (نفحة اليمن، فيما يزول بذكره الشجن ط)، و(حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح ط) في لطائف اليمنيين، والحجازيين، وأدباء مصر والشام، والعراق، وغيرهم، وهو الذي يعنيه هنا، مات سنة ١٢٥٣ هـ (الأعلام ١: ٢٤٦).
(٢) طرا: أصلها: (طرأ). والثانية بمعنى: حاجة.

شـرّفْـتـني بـبـيـان دون صَـنْـعـتـه
نـظم البـديـع، ومعـنى يخجـل الـزَّهَـرا
رقّـت وراقت مـعـانيـه الـبليـغـة حـتّى
كـاد يـنـسى بهـا مـا مـرّ أو غـبـرا
وإنـي لــو نـظمت الـزُّهــر في كـلمي
مـا كـنت مـثلك بـالإتـقـان مشـتهـرا
أنَّى لمـثـلي مجـاراة لمـثـلـك يـا
شهاب أفق العلى، يـا من سما وسـرى؟
نـاهيك من بصَـرٍ مـا فيـه من حَصَـرٍ[1]
يمليـك مـن دُرَرٍ كـم حيّـرت فِـكَـرا
(يـبـثـيـه)[2] مـولاه لـلآداب يلبسـهـا
عقـود نـظم تفـوق الـزُّهْـر والـزَّهَـرا

- ٦١ -

ولـــه:

مـا أبـصـر الـطرفُ[3] بمـصـرٍ وشـام
في الـظرْف والـبـهـجـة والاحـتـشـامْ
مـثـل رشـيـق صـاد أحـشـايَ إذ
صـادفـتـه يـعـطف غـصـن الـقـوام

(١) الحصر: العيّ والعجز.
(٢) كذا في الأصل، ولعلها تنبيه.
(٣) في الأصل: (الدمع)، والتصحيح من حلية البشر ٣: ١١٩٧.

ما بين سلعٍ ورياضٍ بها
قد رقص الغصن وغنَّى الحمام
وصفّقت أوراقه فرحةً
إذ نثر الدرّ عليها الغمام
فصرت مبهوتاً لما عاينت
من حسنه عينايَ، والقلب هامْ[1]
ولم أُطِق تأخير رِجْلٍ إلى
خلفٍ، ولا تقديم أخرى أمام
فمذ رأى من حالتي ما رأى
أيقن أنّي دِنِفٌ مستهام
وجاء نحوي مقبلاً مسرعاً
مبتسم الثغر، وأدّى السلام
فقلت: يا أهلاً ويا مرحباً
بمخجل الشمس وبدر التمام
وكاد أن يعطف غصناً[2] إلى
روضٍ بشمل الأُنس فيه انتظام
لولا صديق ظنّه إذ بدا
له: رقيباً، فتوقى الملام
وراح مني خجلاً مفزعاً
وخلّف الأحشاء فيها ضرام

---

(١) في الأصل: (كذي العقل هام)، والتصحيح من الحلية أيضاً.
(٢) في الحلية: (يعطف عطفاً).

- ٦٢ -

ولـه أيضـاً:

اعـطفْ ورِقّ لحـالـيـه
يـا ذا الـشـفـاه الحـالـيـه
لا تُـبـلِ قلبي بـالـتـجنّي
فـهـو نـارٌ حـامـيـه
خـذ يـا حبيبي مـا مـلكـ
ـتَ، وإن تُـرِد فـفـؤاديـه
واحـيـرتي.! واحُـرقـتي!
إن زدت في هـجـرانـيـه
ارحـم فـديـتـك ذلّـتي،
وكـآبـتي، وبـكـائـيـه
جـرّعـتـني غـصص الجـفـا
وتـركـت روحيَ بـالـيـه
هـا حـالـتي يـا مـنـيـتي
تـنبيـك عـن أشـجـانـيـه
يـا مـن حـفـظت ودادَه
وأضـاعـني وودادـيـه
حـرّمتَ طِـيبَ الـنـوم يـا
تـيّـاه عـن أجـفـانـيـه
يـكـفـيـك أنّيَ مُـدنَـف
حتى الـعـذول رثـى لـيـه

أوّاه مما نابني
آهٍ وآهٍ ثانيه
ما ضرّ لو أطلقتني
من لوعتي وعنائيه
سوّفتَ[1] بي ومطلْتني
وجحدت دَيْن وصاليه
واللّهِ روحي عن غرا
مك قطُّ ما هيَ ساليه
داوي[2] بوصلك مهجتي
لا ذقت مثلي غراميه

- ٦٣ -

يقولون لي: صف من شغفت بحبه
وأنت بهذا الوصف أدرى وأعرف[3]
فيا ليت شعري ما أقول بوصفه
وطيب شذاه من شذا المسك أعرف

---

(١) يقال سوّفه وسوّف به، أي مطّله.
(٢) الخطاب للحبيب، فكان حقه حذف الياء، ولكن يبدو أن الشاعر هنا مع ضغط الوزن عليه لم يستطع مداراة الحقيقة فخاطب الحبيبة المقصودة.
(٣) قال في هامش الأصل: البيت الأول رفو وإيداع من قول ابن الفارض:
يقولون لي: صفها وأنت بوصفها خبير، أجل عندي بأوصافها علم

- ٦٤ -

وحقِّك[١] أنت القصد والسؤل والمنى
وهذا يمين لست فيه أمين
فلا تتّهمني بالسلوِّ فإنني
حفيظ على سرِّ الوداد (أمين)

- ٦٥ -

وحقِّك[٢] أنت القصد والسؤل يا مُنَى
فؤادي، ولم يخطر سواك ببالي
فلا تتهمني بالسلوِّ فإنّه[٣]
محالٌ ولو أمسى جُسيميَ بالٍ[٤]

- ٦٦ -

أطلتَ اللوم لوماً في خليلي
فقصِّر في ملامك يا خلي لي
فإنّ بمهجتي ناراً تلظّى
ربَتْ ونمتْ على نار الخليل

---

(١) قسم لا يراد به تعظيم المقسم به، وإنما المراد إظهار إعزازه.
(٢) انظر التعليق السابق.
(٣) في الأصل: (فإنني).
(٤) السياق يقتضي: (بالياً)، لأنه خبر أمسى.

- ٦٧ -

وله في التورية، وهو من أوائل نظمه، من أبيات:

كم تشفعتُ في الهوى بخضوعي
وبذُلّي، وأنت تأبى اقترابي
وشكوت الجوى إليك وما أَلْـ
ـقاه من حرِّه، لترثي لما بي
فأطلت الصدود تيهاً وعُجباً
وجعلت الجواب ترْك الجوى بي[1]

- ٦٨ -

يا من تملّكنا فلم يرفق بنا
وغدا بسيف اللحظ يفتك فينا
كم ذا تصُدّ وقد أضرّ بنا الجوى
يا باخلاً بوصاله وضنينا

(١) هذا هو محل التورية.

- ٦٩ -

يقول لي العاذل لمّا أن بدا
بطلعة تسمو على شمس الفلَكْ:
أنت إمام في الذكا مقدّم
وإن تأخرت زماناً كم ترك
فصِفْ لنا قامته وثغره
فقلت: خذ وصفهما من ذا الملك
الثغر منه جوهر محقّق
والقدّ رمح قاتل بغير شك

- ٧٠ -

وقال في ألثغ يلثغ بالراء:

وألثغ قلت له: إنني
بلغت في عشقتك الغايه
وصرتُ فيها ناشراً رايتي
فقال لي: هل للهوى غاية؟

- ٧١ -

(وله) في حبشي اسمه بلال، وفيه التورية[١]:

بمهجتي شادن ظريف
فاق القنا قدّه اعتدالا
قلت له: ما اسمك المفدّى؟
أجابني مسرعاً: بلا، لا

- ٧٢ -

وله أيضاً في حبشي اسمه ناصر، وفيه التورية أيضاً:

أفدي غزالاً رشيق قدٍّ
إلى بني الحبش منتماه
جارَ ولم يَرُع ضعف حالي
وليس لي (ناصر) سواه

- ٧٣ -

وله من قصيدة غزلية:

فدموعي قد أصبحت في هبوط
من جفوني، وزفرتي في صعود
فكأنّ الدموع صوْبُ غمام
وكأن الزفير صوتُ رعود

---

(١) كثيراً ما كان شعراء عصر الزلي وعلماؤه ينظمون مثل هذه الأبيات من أجل المحسّن البديعي وحده، بقصد إظهار البراعة.

- ٧٤ -

كـأنمـا أفـق الـسـماء مـكـتسٍ
عـرضـاً وطـولاً بمُـلاءِ الـسُّـحُـبْ
بـحـر مـن الـزنـبـق قـد حـرّكـت
بـاحـتَـه ريـحٌ رُخـاءٌ تهُـبْ

- ٧٥ -

وقال في (. . . .)[1] أبيض لابسٍ أزرق:

بمـهـجـتي أفـديـه مـن شـادن
يـسـحـرني بـالـنـاظـر الأدعـج
مُـنْـذ لاح في الأزرق شـبّـهـتـه
جـوهـرة في حُـقّ فَـيْـروزَج

(١) كلمة لا موجب لذكرها.

- ٧٦ -

وقال فيه أيضاً:

بأبي ظبياً مليح الرونق
قام يسعى في قباء أزرق
قال: صفني إن تكن تعشقني
قلت: بدر في سماء مشرق[١]

- ٧٧ -

رشأٌ قدّه من الغصن أرشق
ومحيّاه من سنَى البدر أشرق
جاء يسعى في أزرق فرأينا
غُصُنَ البانِ بالبنفسج أورق

(١) قال في هامش الأصل: وقال في الحاشية (لا ندري أية حاشية يقصد): مشرق في آخر الثاني، صفة لسماء، وإنما ساغ وصف المؤنث بالمذكر لتأويله بالأفق، وذلك كثير في كلامهم. أو صفة لبدر، وجرّ بالجوار، على حد قوله: في بجاد مزمّل، وقولهم: جُحْرُ ضبٍّ خربٍ، فافهم ترشد. وقال كاتبه: لو قال: مشرق صفة لسماء؛ لأنها قد تذكّر، كما في القاموس وغيره مسطّر، لاستغنى عن التطويل، ولما احتاج إلى هذا التأويل.

- ٧٨ -

ولـه أيضاً في لابس أحمر:

تخطى بقدٍّ كالقضيب وفوقه
قميص كلون الدم أو حمرة الشفق
فلم أدرِ: هل[1] خدّاه منه تورّدا
أم الثوب من خديه حمرته سرق؟

- ٧٩ -

وقال في مجموعة له في ذيل بيان التفريع عند البيانيين وذكر بعض الآثار فيه لبعض الأدباء يقول كاتبه الفقير إلى رحمة مولاه القدير: وكان قد خطر بالخاطر الفاتر والذهن الكليل، أن أنظم شيئاً من هذا القبيل، فقدمت على من شأني عنده أن أتأخر، ونظمت ما من حقه أن يُنثر، في قولي:

وما خابطٌ في جنح ليلٍ نجومُه
تواريْن في أستار جون السحائب
ببيداء قفر لا أنيس له بها
سوى الوحش في غابات تلك السباسب
وما إنْ له فيها دليل فيهتدي
بنور ذكاه من ضلال الغياهب
بأحْير مني يوم زُمَّت ركابُهمْ
وسار فؤادي حادياً للركائب

(١) الصواب أن هل لا يطلب بها التعيين، فالمكان للهمزة، على حد قوله تعالى: ﴿أأنتم أشدّ خلقاً أم السماء﴾. ولكنه خطأ شائع عند بعض الشعراء والكتّاب إلى الآن.

- ٨٠ -

وله أيضاً، وفيه إيهام التوكيد:

انظرْ للروض تشاهدُ ما
يجلو عن ناظرك الأرقا
فالدرُّ على الأزهار غدا
عقداً درِّيّاً منتسقا

- ٨١ -

وله أيضاً، وفيه الاكتفاء:

شكوت لمن أهواه حزني ولوعتي
ليطفىء ناري باللقاء، فأضرما
فآليت أنِّي لا أبث صبابتي
ولا أشتكي للخلق حزني، وإنّما

- ٨٢ -

وله مثله:

ظفرت بمن أهوى فقلت له: نما
غرامي، فصلني، واكسب الأجر واغنما
فلم يرثِ لي، بل قال: لو كنت صادقاً
لما كنت تشكو لي الغرام، وإنما

- ٨٣ -

وله أيضاً، وفيه الاقتباس:

جرحت قلبي بلحظٍ
من دونه المرهفات
فاقتص طرفي لقلبي
(وفي القصاص حياة)

- ٨٤ -

وله مثله:

ألا فاتق الله يا من عصى
وللذنب مهما استطعت اجتنب
فمن يتق الله يعظم له
بيوم الجزا الأجر مما يحب
وفي الضِّيق يجعل له مخرجاً
(ويرزقه من حيث لا يحتسب)

- ٨٥ -

وله في واقعة حال، وفيه الاكتفاء:

يا لَقومي مَنْ منصفي من صحاب
قدرُهمْ لم يزل لديّ عزيزاً
خلفوني وحدي، وأُمُّوا رياضاً
طرّزتها يد البَهـا تطريزا

وتنادوا على الخصوص سراعاً
بأمور تؤكد التميزا
وقضوا نحبهمْ برمزٍ خفيٍّ
يحسبوني لم أدرِ تلك الرموزا
وأطالوا الصدودَ عنّيَ ظنّاً
أن شرح العتاب يُمسي وجيزا
فهنيئاً لهمْ بذلك لكن
ليتني كنت معْهمُ فأفوزا

- ٨٦ -

وشادنٌ زارني يوماً فقلت له:
هيّا بنا نتعاطى الراح، فاعتذرا
فقلت: لِمْ لا فدتك النفس، يا أملي
(بِلا) قضيت لمضناك الشجِي وطرا
فقال ـ والقلب مني في جوى وعَناً
وقد غدا الدمع من عينيّ منهمرا ـ:
الراح شمس، وباهي طلعتي قمر،
(والشمس لا ينبغي أن تدرك القمرا)

- ٨٧ -

وله أيضاً، وفيه التورية في غير القافية في (ما):

يـا دمـع عـيـني، تـدفّـق
ولا تـكـفّ انـسـكـابـك
ويـا جـسـيـمـي تحـمّـل
(واصـبـر عـلى (مـا)[1] أصـابـك)

- ٨٨ -

وله أيضاً، وفيه تضمين، وقد افتتح به كتاباً لبعض الأحباب:

أهـدي ثنـاءً يفـوق المسـك عـاطـرُه
وتخـجـل الـروضـة الـغـنّـا أزاهـرُه
وعـقـد درٍّ تحـيـات مـنـظـمـة
(تنـوب عن ثغر من تهـوى جـواهـره)[2]

- ٨٩ -

ولـه مثلـه:

عـلى عِـطْفـه الميـاس وافـر شَعْـرِه
تـدلّى، فغـطى صبـح طلعتـه الجـلي
فناديتـه ـ والعقـل ضـلّ عن الهـدى ـ:
(ألا أيهـا الليـل الطويـل، ألا انجـلِ)

---

(١) ما: مقصور ماء.
(٢) في هامش الأصل: وصدره: (فانهض إلى ذوب ياقوت لها حبَب). وهو لابن النبيه.

- ٩٠ -

ولــه مثلـه:

لئــن كــنــت كــدّرتُ الــوداد بِــزَلَّــتي
فخـذ ما صفـا، والأخـذُ بـالعفـو أصلح
فـمثـلك ذو حلمٍ، يـعـفّ عـن الأذى،
ويعفــو عن الجـاني، ويصفــو، ويصفـح
ومـثــلي من يـبــدي القـبيــح لـقبـحــه
(وكــل إنــاء بــالــذي فـيــه ينـضــح)

- ٩١ -

ولـه أيضاً مضمّناً:

تحـلّى جــيــدهــا بــعــقــود درٍّ
دراري الأفْــق لم تــذكــر لــديــه
ولاح بــوجــهــهــا عــرَقٌ كــدُرٍّ
ولم نــشــعــر بــه، فــهــوى عــليــه
فــحــين رأتــه قــالــت: لا عــجــيــب
(شــبــيــه الشيء مــنــجــذب إلــيــه)

- ٩٢ -

وله قصيدة لم تتم، مضمّناً مصراعين من قصيدة للمتنبي[١]:

لها قامة دبّت سلافةُ ريقها
بها، فعدَتْ تماس من نشوة السكر
وعين تصيد الأُسْد، ينسيك سحرها
(عيون المها بين الرصافة والجسر)
فلله عين ذات غنج، جفونها
(جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري)

- ٩٣ -

وله أيضاً مثله:

أقول لظبْيٍ لم يزل ليَ شاتماً
وينظرني شزراً على غير ما جرْمٍ
بعيشك كرِّر لي أحاديثك التي
يلذّ بها سمعي وإن ضمنت شتمي
ومُرْ طرْفك السفّاك يسفك فإنه
على كثرة القتلى بريء من الإثم

---

(١) المصراعان للشاعر العباسي علي بن الجهم، فذكْر المتنبي سبق قلم. وقد نبّه إلى ذلك في هامش الأصل.

- ٩٤ -

وله مثله أيضاً في المصراعين:

عليك بحب (....)[1] ما عشت إنه
إذا حلّ في قلب فليس يحول
وإياك والغيد الحسان فإنما
كثير الرزايا عندهن قليل

- ٩٥ -

وله أيضاً مضمناً، وهو من أول نظمه:

ومذ جاء لي الدهر البخيل بفرصة
مع الحب، والواشون عنّا بمعزل
رشفت لماه، قال لي سهل خدِّه:
(تنقّل فلذات الهوى في التنقّل)

[نهاية الديوان المخطوط]

(١) كلمة لا موجب لذكرها.



[الزيـــادات]

- ١ -

وقال مشطّراً لبيتين من شعر شيخ الإسلام عارف حكمة[1]:

(ولما تثنى قدّه وهو مفرد)
بجمع البَها ضمّيته ضمّ مشتاق
ومنذ بدا والقلب يرقص فرحةً
(وللحلْي رنّات تهيج أشواقي)
تذكّرت غصناً حركته يدُ الصّبا
(فمال اختيالاً في غلائل أوراق)
وعُطِّرت الأرجاء من نفح طيبه
(وقد هتفتْ من فوقه ذات أطواق)

(١) شهي النغم ص ١٤٦.

- ٢ -

وقال مشطراً بيتين لأبي الحسين الجزّار[1]:

(أقــول لهــم وقــد حــثــوا المــطايــا)
إلى أيــن الــسُّــرى.؟ ومــتى الــلقــاء؟
خــذوني، أو خــذوا روحــي، وإلا
(قفــوا نفســاً، فســاروا حيث شــاؤوا)
(ومــا عــطفــوا عــليّ وهــم غــصــون)
وشــأن الــغــصــن عــطف وانــحــنــاء
ولا قــالــوا نــعــود، فــقــرّ عــيــنــاً
(ولا الــتــفــتــوا إليّ وهــم ظــبــاء)

- ٣ -

وكتب إلى الشاعر الأديب حسن أفندي بوسنوي المدني[2]:

أيهــا الحــبْــر هــاك مــنّي لــغــزاً
ثــم هــات الجــواب إن كــنــت تــدري
أي شــيء تــراه حــيــنــاً جمــاداً
وتــراه حــيــنــاً يــســيــل ويجــري

شهي النغم ص ١٢٨ والجزار: هو أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم، شاعر مصري، كان جزاراً بالفسطاط، أوصله شعره إلى السلاطين والملوك، وكان بينه وبين السرّاج الورّاق وغيره مداعبات (٦٠١ - ٦٧٩هـ) (الأعلام ٨: ١٥٣).

(٢) ديوان البوسنوي المخطوط، وقد شرعنا في تحقيقه.

وهو العالم الخبير بما في
سالف العصر من خيار وشرٍّ
لجميع الكتّاب ربح إذا ما
قلّبوه، وذاك في وسط شعري.؟

- ٤ -

فأجابه البوسنوي:

أيها البرُّ هاك دُرّ جواب
حازه الفكر منك من قلب بحر
إن لغزاً أوفى به الحِبُّ حِبٌّ
راق حسناً بعين راءٍ كبدر
جاء حُرّ الأطراف وهو رقيق
أي سوق يباع دوماً لنشرٍ
وتبدّى يرجو الكتابة والتحـ
ـريرَ من أيدي أيّ عبد وحرّ
وأتى سائل الجماد عن السا
ئل، وهو الحَبر الخبير بحَبْر
ذاك شيء تصحيفه كل خير
أمّ علياك لا يشان بشرّ
لم يزل قلبُه يقلّب دهراً
بين نفع إلى العباد وضُر
هو حرب العدوّ مع برح إثم
وهو ربح الصديق مع رحْب أجر

وعجيب وهو المحرّر للرقّ
وما انفكّ وهو في الرق يجري
كم بتسويده تسوّد كتّا
بُ سمَوْا في تبييض نظم ونثر
هذه قطرة همَتْ من يراع الـ
ـوصفِ فيه تنهلّ من وبل قطر
فبنفس الصواب أكحل إذا ما
ضلّت القصد عين عشواء شعري

- ٥ -

وقال مشطراً أبياتاً للمناستري[١]:

(وما أنس من أشياء لا أنس شادنا)
نفوراً، ولكن في فؤادي مراتعه
تعشقته لّما بدا لي طرفه
(بمكة مكحولاً أسيلاً مدامعه)
(مزجت دموعي بالدماء متى بدا)
سناه، ولاحت في السعود طوالعه
بفرق سنى شمس النهار إذا انجلت
(لطرفي بسوق الليل منه لوامعه)

---

(١) ديوان البوسنوي المخطوط.

والمناستري: هو محمد شاه بن أحمد المناستري الصديقي، ابن أبي السعود الرومي الحنفي، المتوفى سنة ١٠٥٢ هـ، له عدّة مصنفات، منها: منتهى الأنهر في شرح ملتقى الأبحر. (هدية العارفين ٢ : ٢٨١).

(أيـا أبهـج الـغـزلان أنـعـم بـنـظرة)
لتغـنم سعـداً بعـده عـنـك فـاجعـه
فـمثـلك ريـمٌ لـيس يـبـخـل بـالـلقـا
(لصبٍّ أليف السهـد تجري هـوامعـه)
(فـواللهِ قـد أضحى لأجلك مغـرمـاً)
حـزينـاً كئيبـاً صبـرُه لا يـطاوعـه
وكـيف يـطيق الـصبـر صـبٌّ متيَّم
(أميـطت لـه عن وجـه حَيْنٍ بـراقعه)
(فهـل لي اجتمـاع فيـه إحيـاء مهجتي)
ولـو بخيـال مـنـك تبـدو طـوالـعـه
فيـا ربّ عجّـل لي طـريقـاً إلى اللقـا
(مـع الخيميِّ الحـامـد السعـد طـالعـه)

- ٦ -

وقد خمّس البوسنوي هذا التشطير فقال:

رعى الله مَنْ عنهم غـدا الجسم بـائنـاً
وشـخـصـهـمُ مـا زال لـلطرف بـائـنـاً
وقـد دام لي التـذكـار فيـهم مخـادنـاً
(ومـا أنس من أشيـاء لا أنس شـادنـاً
نفوراً، ولكن في فؤادي مراتعه)
وظبيـار رشيق القـدِّ قـد رقّ عـطفـه
وراق، وفـاق الغصن في الميـل عـطفـه

ظـريفـاً، لـطيفـاً، يسلب اللبَّ ظـرفـه

(تـعـشـقـتـه لّمـا بـدا لي طـرفـه

بمكة مكحولاً أسيلاً مدامعه)

غـدا جـامعـاً للحسن فـرداً مـوحّـدا

متى مـا رأى راءٍ بـه الـزيـن وحّـدا

هـو البـدر لكـن بـالكـمـال تـأبّـدا

(مـزجت دمـوعي بـالـدمـاء متى بـدا

سناه، ولاحت في السعود طوالعه)

بـدور سـماء الـنـور منـه تـكـمّـلت

ومـن وجهـه العِـينُ الحسـان تجـمّـلت

فـلله مـن بـدر مـبـاديـه أحـجـلت

(بـفـرق سنى شمس النهـار إذا انـجلت

لطرفي بسوق الليل منه لوامعه)

لقـد صـرت من جـور الهـوى آيَ عِبْـرةٍ

وأيـدي النـوى تمحـو وجـودي بعَبـرتي

وكم ذا أُنـادي من هـوى كـل نصـرة

(أيـا أبهـج الـغـزلان أنـعـم بـنـظرة

لتغنم سعداً بُعده عنك فاجعُه)

بـك الـيـوم أمسـى متعبـاً مـتـعـلقـاً

أسـير مـهـادٍ لـلـمـدامـع مـطلقـاً

فـبـالقـرب كـن فضـلاً لـه مـتـألقـاً

(فـمثـلك ريم لـيس يـبـخـل بـالـلقـا

لصبٍّ أليف السهد تجري هوامعه)

وحنّ على المشتاق، وارحم لترحما

فقد رحم الرحمن من قد ترحّما

ولا تتخذ إن فاته الودّ مَغْرما

(فوالله قد أضحى لأجلك مُغرما

حزيناً كئيباً صبرُه لا يطاوعه)

وحاشاه يبعد موحش ومهيّم

وجثمانه للنازلات مخيِّم

وقد خانه في الصبر عنك التهيّم

(وكيف يطيق الصبر صَبٌّ متيّم

أميطت له عن وجه حَيْنٌ براقعه)

قضى بيننا المولى ببين مشتّت

وما حيلة المُضنَى الوثيق المشتّت

ويا ليت شعري بعد هذا التشتت

(فهل لي اجتماع فيه إحياء مهجتي

ولو بخيال منك تبدو طوالعه)

أرى الشوق للأحشاء قد بات مقلقاً

وباب التلاقي أصبح الدهر مغلقاً

ولا صبر لي عمّن به القلب علّقا

(فيا ربّ عجِّل لي طريقاً إلى اللقا

مع الخيميّ الحامد السعد طالعه)

- ٧ -

ومما استجاده صاحب الحلية من شعره قوله(١):

أنـا في الحـبّ مـعـنّى
والـذي أهـوى مُـهـنًّى
ولـسـان الـدمـع أبـدى
من غـرامي مـا استكنّا
وفـؤادي قـد وهـى وجْـ
ـداً، وعـظمـي زاد وهْـنـا
واشـتـيـاقـي قـد بـراني
وحـشـا الأحـشـاء حـزنـا
وزفـيـري وشـهـيـقـي
أحـرق الجـسـم وأفـنى
وجـفـا الـنـوم جـفـوني
فـغـدت لـلسـهـد سُكْـنى
يـا لَـودّي مَـنْ لـقـلـبـي
مِـنْ مـلـيـح يـتـجـنّى؟
مَـنْ مجـيـري مِـنْ مـلـيـك
أسـر الـقـلـبَ وعـنّى؟
آمـرٍ في الحـبّ نـاهٍ
فـرَضَ الحـبّ وسَـنّـا

---

(١) حلية البشر ٣: ١١٩٦ ـ ١١٩٧.

ونضا سيف جفاه
وبما أرجوه ضنّا
ليت شعري ما عليه
لو شفى بالوصل مُضْنى
وعفا عن شؤم ذنبي
كرماً منه ومنّاً
وتلافى بالتلاقي
مبتلىً فانٍ[1] معنّى
ورضِي عني فإني
صرت كالعبد وأدنى
أيظن الهجر يُسلي
ويظن القلب يُثنَى
لا ومن قدّر في الحُـ
ـبّ بأن يبقى وأفنى
ما تسليت ولو أمّـ
ـست لي الجفوة سجنا
لا ولا أهوى سوا
ه، إن دنا أو صدّ عنّا
كيف أسلوه وقلبي
نحوه حنّ وأنّا
واصطباري فرّ من بيـ
ـنِ يدِي والعقل جُنّا

(١) كذا في الأصل، والسليم نحوياً (فانياً).

يا حبيبي، هات قل لي
أيّ ذنب كان منّا
ما الذي أغراك حتى
ملت عمّا قد عهدنا
ما الذي أوجب هذا
هات، بالله أفدنا
إن يكن ذاك دلالاً
ما أُحيلاه وأهْننا
أو لذنبٍ كان، إنّا
عنه تبنا ورجعنا
أو وشى واشٍ مُريب
أو حسود قد تعنّى
فلقد أبلغتَه بال
هجر فينا ما تمنّى
حبّذا إن كان يرضيـ
ـك ولو أنّا تلفنا

- ٨ -

ومـن قوله[1]:

سـوايَ محـبٌّ لـلمـواثـيـق نـاكـث
وإني عـلى عـهـد الـصـبـابـة مـاكـث

وإن تـنس عـهـد الحب إني[2] لحـافظ
لـودٍّ قـديـم لم يـغـيّـره حـادث

وأُقـسـم إني لا أمـيـل عـن الهـوى
ومـا أنـا في هـذي الألـيّـة حـانـث

فـكيـف سـلوِّي، واشـتـيـاقـي دائـم.؟
إذا رثّ مـنـه بـاعـث جـدّ بـاعـث

وإن عـقـد العـذّال في كـتُـب لـومـهمْ
فـصـولاً، فـلي في حلّهن مبـاحـث

وإن سـلمـوا حـال الجـدال تـركتهم
وإلا فـلـم أبـرح بـعـلـم أبـاحـث

وشـتـان مـا بـيـني وبـين مـؤنـبـي
لأني مجـدّ في الهـوى وهـو عـابـث

وإن كـان صبـري عن فـؤادي راحـلاً
فـجيش غـرامـي في سـويـداه لابث

فـيـا يـوسفيّ الحسـن، يـا من بـحبّـه
غـداً وهـو من يعقـوب للحـزن وارث

---

(١) حلية البشر ٣: ١١٩٧.

(٢) حذف الفاء من جواب الشرط ضرورة.

ويا ناهباً عقلي وسالب صحتي
بطرف مريض الجفن للحسر نافث
رويدك لا تصدع بصدّك مهجتي
فقد أزعجتني من جفاك الحوادث
وصلني ولا تصغي[1] لقول عواذلي
فما هم وما قالوه إلا خبائث
وذرْهم يخوضوا في الملام فإنما
عداوتهم للعاشقين توارث

- ٩ -

وقال[2]:

تبدّى لنا ملفتاً جيده
ومن عادة الظبي أن يلتفتْ
ومرّ وأسرع في مشيه
فخلناه من شَرَك منفلت
غزال غزاني وأبدى السرو
ر لذلك حتى عذولي شمت
وصال بأسمر من قدِّه
وأبيض من جفنه منصلت

---

(١) الخطاب هنا للمؤنث، وهو المراد الحقيقي في رأينا.

(٢) حلية البشر ٣: ١١٩٨.

فلا بِدْع إن صرت من لحظه
جريحاً، وعقلي به قد بهت
وأمسيت لم أدرِ أين الطريـ
ـقُ؟ ولا الفرق ما بين سبع وست؟
وأسرعت إن سار في خطّة
إليه، وإن يلتفت ألتفت
فكلٌّ يميل إلى حسنه
إذا ما بدا، وإذا ما نُعت
فيا ليته جاد لي باللقا
على رغم أنف الزمان المشت
وإن سمح الدهر يوماً به
فلم ألتفت طول دهري لِسِتْ

- ١٠ -

وقال(١):
مذ غبتَ يا بدر عن هذي المطالع ما
أبقيت إلا غراماً في الضلوع ثوى
فالجسم عندي، وعيني في الطريق، وها
قلبي لديك يعاني حرقة وجوى
والشوق ولّى عليّ الحزنَ إذ عزل الصَّبْـ
ـرَ الجميل، ونومي للفرار نوى

(١) المرجع السابق ص ١١٩٩.

والـدمـع خـطـط لي ثـوب الضنى بيـدٍ
حمـراء لمّـا رأى جسمـي سليـبَ قـوى
فكم يقـاسي العنـا قلبي وقلبـك يـا
روحـي مهنّـا لأنـواع السـرور حـوى

- ١١ -

وقـال أيضـاً(١):

لاح الـصـبـاح بـرايـة بـيـضـاء
وسـطـا فـفـرّق عـسـكـر الـظلماء
والـروضـة الـغـنّـاء قـام هـزارهـا
يـشـدو فـأشـجـانـا بـطـيـب غـنـاء
والـغـصـن لاح لـنـا بـتـاج أزاهـر
مـتـكـلّل بـجـواهـر الأنـداء
فـانهض وبـادر لـلخـلاعـة، واغـتـنم
صفـو الـزمـان، ولا تكـن متـنـائي(٢)
واقـرن صبـوحـك بـالغبـوق، ولا تـدع
فـرص الـسـرور بـغـدوة ومـسـاء
واعقـد ببنت الحان، واجعـل مَهْـرهـا
عـقـلي، وأشـهِـدْ سـائـر الـنـدمـاء

(١) المرجع السابق ص ١١٩٩ ـ ١٢٠٠.
(٢) القاعدة النحوية تقتضي إظهار الفتحة: (متنائياً). وتأثر الشاعر بأبي نواس في هذه القصيدة ظاهر، وهو أسلوب كان شعراء ذلك العصر يعدونه من وسائل إثبات الشاعرية. عفا الله عنهم.

واستجلها بِكراً تقلّد جيدها
بعقود درٍّ، بل نجوم سماء
واشهَدْ محاسنها إذا ما أُهدِيت
من كأسها في حلّة اللألاء
وافضض ختام كؤوسها، واكشف لثا
م عروسها، وانشق لطيف شذاء
واعدل عن العيدان وارشفها على
رقص الغصون ونغمة الورقاء
وإذا سألتك ما اسمها متلذِّذاً،
قل لي فديتك في جواب ندائي:
هي راحة الأرواح والروح التي
قامت به أجساد كل هناء
لا، بل هي الراح التي من شأنها
جلْبُ السرور، ودفْعُ كلِّ عناء
راحٌ تشابه لونها وإناؤها
وتشاكلا في رقة وصفاء
راحٌ إذا ظهرت بيوم مشرقٍ
أخفت أشعتُها ضياءَ ذُكاء
راحٌ إذا ما أبرزت من خدرها
في ظلمة لم نفتقر لضياء
راحٌ يفوق المسك طِيبَ شذائها
يغنيك عن ندٍّ ونشر كباء[1]

---

(١) الكباء: الغبرة.

فاشرب هنيئاً واسقنيها قهوة
حمراء وسط زجاجة بيضاء
من كفّ ساقٍ في لحاه ولحظه
وحديثه نوعُ من الصهباء
وبخده وردُ حماه بأسهم
عن قطفه باللحظ والإيماء
فإذا رنا هشّ العيون، أو انثنى
فضح الغصون بقامة هيفاء
وإذا بدا والبدر حال تمامه
لم يدر أيّهما رآه الرائي
فعليك يا هذا بها، وإليك عن
قول العواذل يا أخا السرّاء
واركض بميدان الخلاعة والهوى
طلق العنان برغم كل مُراء
ودع المساجد عنك والزم عادة الأ
دبا، وخلِّ ثقالة الفقهاء[1]
واصرف زمانك كلَّه في شربها
صرفاً، وحاذر مزجها بالماء
وامزج زجاجتها إذا ما عفتها
بلماه، فهو دواء هذا الداء

(١) نستغفر الله لنا وله من هذا القول، الذي لا ينبغي أن يصدر من مسلم عاقل في جدٍّ أو هزل. وكأنما الشاعر هنا تقمص شخصية بعض العابثين، ليصل في آخر القصيدة به وبأمثاله إلى طريق التوبة والإنابة إلى الله.

أو مِنْ لمى عذراء ذات مقبَّل
عذب شهيٍّ فيه برء ضنائي
تسبي وتستلب العقول إذا رنت
للعاشقين بعينها الكحلاء
واعص النصيح، ولا تخَفْ أحداً سوى
مولاك في السرّاء والضرّاء
واخضع، وذلّ له، ولُذ بجنابه
ينجيك من سوء وشؤم بلاء
وأعِدّ توبة مخلص من قبل أن
يزف الرحيل وأنت في الأهواء
فلعلّ أن يُمْحَى بصادق فجرها
ديجور ليلة جرمك الليلاء

انتهى

من مـراجع التحقيق

١ ـ تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب تأليف عبد الرحمن الأنصاري ـ تحقيق محمد العروسي المطوي ـ تونس.
٢ ـ إيضاح المكنون ـ إسماعيل باشا.
٣ ـ شهي النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ـ لأبي الثناء الألوسي ـ تحقيق الدكتور محمد العيد الخطراوي.
٤ ـ الأعلام ـ للزركلي.
٥ ـ معجم المؤلفين ـ رضا كحالة.
٦ ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ محمد فريد بك المحامي ـ تحقيق الدكتور إحسان حقي ـ بيروت.
٧ ـ فصول من تاريخ المدينة ـ علي حافظ ـ جدة.
٨ ـ الشعر الحديث في الحجاز ـ عبد الرحيم أبو بكر.
٩ ـ المدينة المنورة عبر التاريخ ـ للبرادعي.
١٠ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ عبد الرحمن الجبرتي ـ تحقيق حسن محمد جوهر وزميليه.
١١ ـ ماضي الحجاز وحاضره ـ حسين نصيف ـ سنة ١٣٤٩هـ.
١٢ ـ تاريخ جُدّة ـ عبد القدوس الأنصاري ـ جدة.
١٣ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ـ القاضي محمد بن علي الشوكاني.
١٤ ـ حلية البشر.

١٥ ـ الأخبار النجدية ـ للفاخري ـ تقديم وتحقيق الدكتور عبد الله الشبل ـ الرياض.
١٦ ـ التوسل والوسيلة ـ لشيخ الإسلام ابن تيمية.
١٧ ـ وحي الصحراء ـ عبد الله بلخير وزميلاه ـ جدة.
١٨ ـ في الأدب الحديث ـ الدكتور عمر دسوقي.

الدوريات والمخطوطات

١ ـ جريدة المدينة (السعودية) العدد ٦٠٦٠ ـ الأحد ٢٤ محرم ١٤٠٤هـ.
٢ ـ مجلة المنهل (السعودية) ـ عدد ذي القعدة وذي الحجة سنة ١٣٦٨هـ.
٣ ـ ديوان البوسنوي (مخطوط).
٤ ـ طبقات العلماء والعباد والزهاد ـ محمد أمين الزللي ـ مخطوط.

صدر للمحقق

١ ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الأول ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.
٢ ـ شعراء من أرض عبقر ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.
٣ ـ الرائد في علم الفرائض ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة دار التراث (المدينة المنورة) مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).
٤ ـ شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج ـ الطبعة الثانية ـ مؤسسة علوم القرآن (دمشق ـ بيروت).
٥ ـ عارف حكمة: حياته ومآثره ـ وهو شهيّ النغم في ترجمة شيخ الإسلام عارف الحكم ـ لأبي الثناء الألوسي (تحقيق) الطبعة الأولى ـ مكتبة دار التراث ـ ومؤسسة علوم القرآن.
٦ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية) الطبعة الثانية.
٧ ـ المدينة المنورة في العصر الجاهلي (الحياة الأدبية) ـ الطبعة الأولى.
٨ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية) الطبعة الأولى.
٩ ـ المدينة في صدر الإسلام (الحياة الأدبية).
١٠ ـ الفصول في سيرة الرسول ـ للحافظ ابن كثير ـ الطبعة الثالثة ـ تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيي الدين مستو.

١١ ـ المقاصد السّنية في الأحاديث الإلٓهية ـ للحافظ علي بن بلبان المقدسي ـ الطبعة الأولى ـ تحقيق بالاشتراك مع الأستاذ محيـي الدين مستو.

١٢ ـ أمجاد الرياض (ملحمة شعرية) ـ الطبعة الأولى ـ دمشق.

١٣ ـ غناء الجرح (ديوان شعر) ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٤ ـ همسات في أذن الليل (ديوان شعر) ـ الطبعة الأولى ـ نادي المدينة المنورة الأدبي.

١٥ ـ ديوان محمد أمين الزّللي ـ تقديم وتحقيق ـ الطبعة الأولى.

فهرس

مقدمة التحقيق ٥
الشاعر: ٥
نسب الشاعر ٥
عصره ١١
حياته ٢٣
شيوخه ٢٩
صِلاته ٣٢
علمه وأدبه وفضله ٥٨
المخطوطة: ٦٢
وصف النسخة ٦٢
عملي فيها ٦٣
إيماضة ٦٤
ديوان الزللي ٧١
الزيادات ١٧٣
الفهرس ١٩٧